أولاً: نظرات موضوعية

(أ) حياة الشاعر:

من الشاعر محمد الخضر حسين؟

نتعرف إلى الشاعر مرة من خلال ما ذكره عن نفسه في مقدمة ديوانه، ومرة أخرى من خلال هذه النظرات التي سنلقيها على شعره في ديوانه الموسوم بـ"خواطر الحياة".

فيقول الشاعر عن نفسه: "ولدت في بلدة "نفطة" وعشت بها حتى سن الثانية عشرة، وقد حاولت في هذا السن نظم الشعر؛ فقد كان من أقاربي من يقول الشعر، وكان في بلدتي هذه مجالس للعلماء فيها من ينظم الشعر وينشده. ثم انتقلت أسرتي إلى مدينة "تونس: وفيها التحقت بجامع الزيتونة حيث تعقد فيه حلقات العلم، وكان من علماء هذا المجلس ومن طلابه من أولعوا بالأدب والتنافس في صناعة القريض فاقتفيت أثرهم، وكنت أنظم من القصائد ما أهنئ به أساتذتي عند إتمام الدراسة لبعض الكتب، وكان إقبالي على طلب العلم سبباً في زهدى فى صناعة الشعر إلا في أبيات تهنئة لصديق أو في مجالس تجرى فيها محاورات أدبية".

يقول: "وقد اصطحبت معي هذه الأبيات أو القصائد فى رحلتي إلى الشام حيث كانت سوق النظم فى "دمشق" كاسدة؛ لهذا صرفت همتي إلى طلب العلم والعمل للقضية الإسلامية قدر استطاعتي، ولأني أومن بأن الشعر من فنون الأدب الجميل، وللنفس فيه سلوة أرخيت لنفسي العنان، ولا سيما الشعر الذي أطرق به ناحية خلقية أو ما أشارك به العاملين لإصلاح الحالة المدنية"[1].

---

(١) انظر: ديوان خواطر الحياة ص(٥) تأليف محمد الخضر حسين، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة ط ثانية ١٣٧٣هـ.

يقول: "وعندما هبطت مصراً كانت صناعة القريض قد ارتقت فيها إلى ما يطمح إليه الشاعر العبقري، زهدت فى نظم الشعر، وقلت: "أجوده ليس في متناول قريحتي، وغير الأجود تتسامى عنه همتى"، وربما خطرت لى صور من المعانى فى أوقات أبتغى فيها راحة، فألبسها ثوباً من الكلام الموزون، ولم يلم بخاطرى فى يوم أن أجمع ما نظمت وأخرجه للناس، إلى أن جاءنى طائفة من إخوانى الفضلاء واقترحوا على أن أجمع ما نظمت من أوراقى المتفرقة وأن أصدره إلى عالم الأدب فى صفحات متتالية، ولم يسعنى ذلك إلا أن تقبلت اقتراحهم هذا، وقلت: "هو كلام موزون، إن لم يجد فيه الأديب ما يروقه من لفظ أنيق أو معنى رشيق، فقد يرى فيه المؤرخ أشياء يهمه أن يتعرفها من مصادرها المتعددة.

يقول: "وعمدت إلى ما نشر فى بعض الصحف أو احتوته بعض المذكرات، ثم ضممت بعضه إلى بعض، مرتباً له على حروف المعجم، ومنبهاً على المناسبة التى دعت إلى نظم القصيدة أو المقطعة؛ ثم عرضته على من اقترحوا على جمعه، فأطلقوا عليه اسم ديوان، ولقبوه بخواطر الحياة، ثم توجهت إلى القارئ قائلاً: "ودونك ما جمعت ورتبت، فانقده بفكرك الثاقب، وميزان منطقك العادل، عسى أن تنبه على خلل فى تأليف الكلام، أو عيب فى تصوير المعانى؛ فإن فعلت فما هو بأول شعر كشف النقد البرئ عما انطوى عليه من هفوات، وإذا محضتك الشكر، فما أنا بأول من شكر الناقد البصير على إخلاصه للأدب، وإيثاره الصراحة فى الحق على كتم ما تقع فيه الأفكار أو الألسنة من عثرات، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب[1]".

(١) انظر: ديوان خواطر خواطر الحياة ص (٥، ٦) تأليف محمد الخضر حسين، المطبعة السلفية ومكتبها، القاهرة ط ثانية ١٣٧٣هـ

وها نحن ندلف بعون الله وتوفيقه إلى الديوان "خواطر الحياة" قصائده ومقطعاته قراءة وفهمًا ودراسة ونقداً لإبراز ما فيه من مقاصد وأهداف قصد الشاعر إليها قصداً، وعمد إلى تحقيقها عمداً، ومن أهم هذه المقاصد والأهداف، النصيحة لله ورسوله وصالح المؤمنين، والارتقاء بأبناء المسلمين في حياتهم بمختلف نواحيها وأنواعها؛ فنجد الشاعر يصور أمراض المجتمع فى قصيدة حملت نفس العنوان: "بعض أمراضنا الاجتماعية" وهذا العنوان يدل على أن الشاعر في مجتمعه يرصد كل شيء فى بيته، وشاعرنا رصد بعض الأمراض فى المجتمع الشرقى الذى يعيش فيه، والأمراض تطلب علاجاً ودواء ناجعاً، وهاهو الشاعر يدلنا على المرض ويدلنا على علاجه ودوائه؛

يقول؛ (من الكامل التام): [1]

أيعود للشرق الحماسة والإبا ** فتعود عزته ويبتهج العلاء؟

قالوا استقام الشرق وهو يسير فى ** نهج الفلاح وفى عزيمته مضاء

ولشد ما خضنا الخطوب ولم نرد ** إلا العلا وجرت بوادينا دماء

ربط الشاعر عزة الشرق وعلو مكانته بعودة الحماسة والحمية والمروءة والشجاعة والقوة؛ فلا عزة دون قوة، ولا مكانة دون حماسة وشجاعة، وأنى يتحقق للشرق ما يصبو إليه، وفيه هذه الأمراض، ومنها كما صورها الشاعر في قوله:

قلنا الدعارة لم تزل فى أرضنا ** ولرهطها فى كل حاضرة لواء

تلك الخمور تدار فى علن ولا ** لوم ينال المعلنين ولا جزاء

كم من مآدب فى البلاد تقام فى ** رأد الضحى وعلى موائدها الطلاء

(١) انظر: الديوان ص(١١).

إن الدعارة- كما ذكر الشاعر- صارت داء ينخر في عظام أبناء الشرق حتى صار لها دعاة وممولون؛ يرفعون لواءها عالياً خفاقاً ليوفر متعة، ويسد شهوة الفساق، والخمور تباع علناً في كل مكان، ولها من يشجعون غيرهم على شربها، ولا لوم ولا عتاب عليهم، ولا عقاب يوجه إليهم من قانون يردعهم، ومن يريد دليلاً على ذلك فليذهب إلى أي مكان سيجد المآدب تقام، والطعام يقدم ومعه كئوس الخمر في وضح النهار تدار على الحاضرين. وبدلاً من استصدار قانون يجرم هذا الفعل ويعاقب من يفعله هكذا جهاراً نهاراً ليشاركه غيره شربها؛ يصدرون قانوناً يقر الدعارة مع ما يلازمها من طعام وشرب الخمر.

ثم يكشف الشاعر عن مرض آخر تفشى فى المجتمع المسلم هو هذه الدعوات الهدامة التى تدعو إلى خروج الفتيات من بيوتهن إلى المدارس للتعليم، وتقليد الغرب فى الملابس الشفافة والقصيرة وغيرها بدعوى التمدن والتطور؛ فيقول(١):

فتياتنا إن رمت بث شكايتى ** من خطبهن يسابق الشكوى بكاء
كن البدور حصانة ووسامة ** والحسن يبهر إذ يخالطه الحياء
وحجورهن مدارس الأطفال إذ ** طهرت فحظهم الطهارة والنقاء
ما بالهن اليوم يرضين الهوى ** ما شاء لا راع يهاب ولا قضاء
أقصى الإله ملاهياً ومراقصا ** نصبت كأشراك يصاد بها النساء
فيضعن أحمر فوق أبيض زينة ** ويردنها كالعيس يقتلها الظماء
يغشينها وثيابهن كأنها ** لشفوفها فوق الصلا والبطن ماء
أسفاً على عرض الفتاة ألم يكن ** من غيرة الأم العطوف لها وقاء
واليوم ترسلها يد الأب نفسه ** بين الشباب كأنه منها براء

(١) انظر: الديوان ص(١١).

وتعـود مـن تلـك الخلاعـة موهنـاً ** وفؤادهـا مـن عـزة التقـوى هـواء

مرض وداء وبيل حل بالمجتمع الشرقي الذي كان عنوانه العفاف والشرف عند نسائه، والمروءة والرجولة لدى رجاله وشبابه حتى أصبحت العلة به مستعصية الشفاء؛ لقد أصاب هذا المرض ربة المنزل مربية الأطفال أصابها في كل أمور حياتها منذ أن درجت وتعودت الخروج من بيتها سافرة دون خجل أو حياء بدعوى التحرر من قيود الملابس وحشمة الرداء؛ فالأم لا تقى ابنتها من هذا التقليد؛ بل تساعدها عليه، وتجرى هي وابنتها وراء كل ما يأتي من الغرب من ملابس حديثة، ثم هي التي تصمم على زينة ابنتها لا عن طريق التمسك بالخلق الحسن؛ بل بما تضعه على وجه ابنتها من زينة الألوان بيضاء وحمراء، بجوار ما يظهر مفاتن جسدها من ملابس شفافة رفافة وغيرها، ثم هي التي لا تمانع أبداً من اشتراك ابنتها فى الحفلات الراقصة حيث اختلاط الجنسين؛ فتقع البنت في الرذيلة، وها هو الأب نفسه المسئول عن الأسرة يأخذ ابنته ليضعها في أيدي الشباب بدعوى الأخوة والتحرر من التقاليد الشرقية البالية التي في رأيه لم تعد تصلح لمسايرة العصر الحديث المتطور والمتمدن؛ فعادت البنت لا رادع لها من تقوى ولا وازع لها من دين أو شرف.

من هنا صب الشاعر جام غضبه على عمودى الأسرة الراعيين لها هما الأب والأم؛ فعليهما أن يتقيا الله فى رعيتهما؛ فتخلص الأم فى تربية أبنائها، والأب يخلص فى رعاية أبنائه، ويذكر الأم بقول الشاعر حافظ إبراهيم:

والأم مدرسـة إذا أعـددتها ** أعـددت شـعباً طيـب الأعـراق

ثم يتناول الشاعر الخضر حسين مرضاً آخر أصاب المجتمع الشرقى فى الصميم، إنه العمل بقانون الغرب الذى وضعه البشر بدعوى نقص الشريعة فى

قوانينها، أو عدم صلاحيتها لحياتنا الحالية، كبرت كلمة تخرج من أفواههم؛ يقول الشاعر:

قالوا دواء قضاتنا قانون با ** ريز وقانون الإله هو الدواء
سسنا به الأقوام فانتظمت لنا ** في الشرق والغرب العدالة والدهاء
لا تخرج الغبراء مثل محمد ** أو مثل شرع آثرته به السماء
ضاعت بجانبها كفايات بنى ** آساسها العلم المؤثل والذكاء
بلوى الرياسة أن تناط بمن له ** نفس تعبدها غرور أو رياء
يرنو إلى الدنيا بمرآة الهوى ** وبعين أعشى والعشى داء عياء
صوت من الشيطان ردده الألى ** مردوا على تمثيله وهو الهذاء
نادوا بها قومية خرقاء أو ** وطنية، لا حبذا ذاك النداء

الحق واضح لذى عينين، والباطل واضح لكل ذى عقل رشيد؛ فمن يسوى، أو من يساوى بين شرع السماء وبين قانون من وضع البشر، إن كل من يرفض قانون السماء، ويرضى بغيره بديلاً فهو أعمى أو مجنون ظاهر الجنون، إن أحكام الشريعة غراء واضحة، سهلة ميسورة، موفرة لحياة كريمة؛ لقد انتظمت العالم كله يوم أن فتحه الإسلام بالمساواة والسلم والسلام والعدل بشهادة غير المسلمين، وكل من يطلب الرئاسة بغير قانون السماء وشريعة الإسلام بدعوى القومية أو الوطنية فهو صوت الشيطان الذى يقوده ويردده كما ردده غيره من قبل.

وفى هذا الإطار الاجتماعى حرص الشاعر على تذكير المجتمع بأسس مهمة لتوطيد أركانه وتقوية بنيانه من أهمها خلق الصداقة؛ فالصداقة رباط مقدس بين أبناء المجتمع الواحد تقوم على الحب والصدق والإخلاص والشفافية والوضوح؛ فيقول الشاعر فى مقطعه بعنوان (الأثرة بين الأصدقاء)[1]:

(١) انظر: الديوان ص(١٦).

سايرت خلاً فى الهجير فحاد عن ** ظل وآثرنى ببرد هوائه
فأبيت أن أرد الظلال وصاحبى ** يلقى وهيج الشمس فى غلوائه
ولو احتسى الماء الزعاق حسوته ** عبا ولو جاء الفرات بمائه
والود إن شابته يوماً أثرة ** ضلت معالم صدقه وصفائه

ملامح الصداقة الحقة فى الإيثار؛ أن يؤثر الصديق على نفسه كما فعل الشاعر؛ فقد وضح لنا فى هذه الأبيات ما حدث من صديقه الحقيقى؛ فقد آثره على نفسه بكل ما هو طيب فاختار هجير الظهيرة وآثر صديقه ببرد الهواء، وآثره بماء الفرات ولم يرض له به بديلاً، وهذا يحدث منه دون هدف أو غرض سوى الحفاظ على الود والحب الذى ربط بينهما وهما أساس متين للصداقة الحقة، وحذر فى البيت الأخير من حب الذات والاستئثار لأن هذا يعكر صفو هذه الصداقة.

ومما قاله فى الصداقة، مقطعة بعنوان "الأخ الصديق"[1]؛ يقول:

دعتنى إلى وده فطنة ** يجيد بها إن سألت الجوابا
وما بين برديه إلا أخ ** يؤانسنى إن فقدت الصحابا
أدوم عتاباً عليه وكم ** تفرس ما رمته فأصابا
يهب على وجهه خجل ** فيصفو ضميرى وأنسى العتابا

إنها الصداقة الحقة والأخوة الممتازة؛ فله عند صديقه لكل سؤال جواب، ولكل طلب تلبية وعون، وصديقه هو أنسه؛ إن فقد الأخ فهو أخوه، وإن فقد الصديق فهو صديقه، ومابين برديه إلا الأخوة الصادقة، وإذا عاتبه فى شىء ما رأى فى وجهه خجلاً ظاهراً، وعلى إثر العتاب يصفو الضمير، وينسى العتاب وتستمر الصداقة ويزيد الحب.

---

(١) انظر: الديوان ص(٣٠).

ومما يزيد الصداقة قوة ومتانة رقة الطبع وصفاء الود، وعن كل هذا عبر الشاعر فى مقطعة بعنوان "رقة الطبع تزيد المودة صفاء"[1]؛ يقول:

جفا الصديق فناجيت الفؤاد بأن ** ** يبيت فى جفوة تلقاء جفوته
أبى وقال أصون العهد متئداً ** ** فرب ود صفا من بعد غبرته
عاد الصديق فأصفى وده فإذا ** ** حديث نجواى منسوخ برمته
إن تلق طبعاً رقيقاً فاغرسن به ** ** مودة يسقيها من ماء رقته

لقد قابل جفاء صديقه بوصال لا بجفاء ولا بقطيعة؛ لأنه صمم على بقاء الصداقة فصان عهد صديقه وحافظ على وده؛ فما حدث إلا أن عاد الصديق إلى صديقه صفاء مودة وإخلاص محبة؛ فنسخ هذا كل ما حدث من قطيعة وجفاء. ثم أرشد فى البيت الأخير إلى غرس المودة فى الطبع الرقيق ويسقيها من ماء الرقة والحب والصفاء.

ثم يوضح الشاعر ما تتعرض له الصداقة من هزات وخلخلة كالفراق والبعد عن الأصدقاء والأحباب؛ فيقول فى قصيدة له بعنوان: "زهرة الدنيا أخلائى"[2]، وقد قالها فى مصر عقب وداع بعض أصدقائه من تونس:

يوم بين لم أذق من قبله ** ** لوعة كالنار حراً وهياجا
ودعوا والصبح يحدو بالدجى ** ** حاملاً من بين جنبيه سراجا
وامتطوا سابحة فى الجو لا ** ** لقيت من أختها الريح لجاجا
جيرة أصفيتهم ودى ولا ** ** يجد المذق من الود رواجا
قابلوا ودى بود وبنوا ** ** من حفاظ الود للعهد سياجا
لا أبالى إن أنا جاورتهم ** ** أفراتاً كان وردى أم أجاجا
زهرة الدنيا أخلائى ولو ** ** شفنى البين وأعيانى علاجا

(١) انظر: الديوان ص(٤٣).

(٢) انظر: الديوان ص (٤٥).

لقد ذاق الشاعر مرارة الفراق يوم ودع أصحابه وفارق خلانه، واشتدت اللوعة، حتى صارت كالنار شديدة اللهب قوية الحرارة، وكان الوداع مع توديع الصبح المنير لليل المظلم، وهاهم أسرعوا بالفراق عندما ركبوا الطائرة التى أسرعت بهم ليفارقوه، وهم الذين أخلص فى وده لهم دون رياء أو نفاق، ولكنهم قابلوا ذلك بما هو أفضل منه، وكم كان سعيداً بجوارهم لأنه خير جوار سعد به، وكانوا دائماً إخوانه وزهرة حياته وسيظلون كذلك مهما فرق البين بينه وبينهم.

وها هو يتابع ما تتأثر به الصداقة من كيد الكائدين أو حسد الحاسدين أو وشاية النمامين؛ فيقول فى مقطعة له بعنوان "خلوا عداتى"[1]:

خلوا عداتى يملؤن بخيلهم ** وبرجلهم أكم الثرى ووهاده
لاهم فى الدنيا إذا ظفرت يدى ** بأخ عشقت ذكاءه ورشاده
أصفو له أمد الحياة وإن رمى ** سمعى بقول خادش ما اعتاده
لست المقاطع إن جفا خل ولم ** يك قطع رابطة الوداد مراده

يقرر أن يتحلى كل صديق بالإخلاص والوفاء لصديقه، وألا يسمع لمن يحاول قطع هذه العلاقة المقدسة، وقد صمم هو على المحافظة عليها مهما صنع الكائدون والحاقدون فى محاولاتهم النيل من صداقته لأخيه الذى ظفر فى الحصول عليه؛ فهو صديق توافر فيه الذكاء والرشاد الذى يحصنه من حسد الحاسدين ونميمة النمامين، وحتى هذا الصديق الذى أحبه لو صدر منه قول خادش لم يتعود عليه لن يقطع هذا القول ولن يؤثر فى صداقته، ولو جفاه صديقه رغماً عنه لن يجفوه أبداً ولن يقطع صداقته به، ولن يصنع كما صنع غيره؛ يقابل القطيعة بقطيعة مثلها.

(١) انظر: الديوان ص(٦٣).

وعن الحياة الاجتماعية السليمة الصحيحة التى يتمناها كل مواطن صالح لوطنه أن يعيشها ويتمتع بها المواطنون؛ نجد الشاعر يصور ذلك كله فى قصيدة له تحمل نفس الاسم والعنوان: "الحياة الاجتماعية"(١)؛ وفيها يقول:

ليس الحياة نماء الجسم فى أمد ** ولا الحمام توارى الجسم بالنفد
إن الحياة هى الأيام زاهرة ** وليس بالموت غير العيش فى نكد
ولا يطيب الفتى عيشاً إذا نسجت ** فى أرضه مزنة والناس فى جرد
وإنما الشعب أفراد مؤلفة ** فى هيئة الفرد ذو قلب وذو جسد
أما الفؤاد فأرباب السياسة إن ** هموا بخير فباقى الجسم فى رشد
وإن ذكت أمة لانت قلادتها ** بكف قائدها فى السهل والسند
والعز فى الدولة العظمى إذا بنيت ** على أساس من الأحكام مطرد
ولا عواطف إلا أن تسوى فى ** إجرائها نازح الأوطان بالولد
تحمى حقوق بنى الإنسان قاطبة ** لا يعتدى أحد منهم على أحد
والعدل أن يلجوا فصل الخصومة من ** باب المساواة لا إيثار ذى حفد
وكيف يرجح أقوام ووزنهم ** فيما يحد به الإنسان لم يزد

هذه هى النظرة الصادقة للحياة الاجتماعية التى يريدها لنفسه ولأبناء مجتمعه، فليس الحياة كما فهمها البعض خطأ نمو الجسم برعايته طعاماً وشراباً ورياضة لكنها فى الحقيقة هى الأيام السعيدة التى يحياها ويعيشها الإنسان فى مجتمع نظيف أفراده متعاونون يساعد القادر منهم العاجز، وينفق الغنى فيهم على الفقير؛ فلا يطيب لأحدهم عيش سعيد وأخوه فى شقاء؛ لأن الشعب كتلة واحدة ولحمة متصلة وجسد واحد؛ إذا اشتكى منه عضو سهر له باقى أعضائه فى خدمته وتأثروا بمصيبته، ويخص الشاعر بالذكر أهل السياسة وأرباب الحكم

(١) انظر: الديوان ص(٧٥).

الذين عليهم المعول فى كل شىء؛ فإن هم هموا بفعل ما يصلح المجتمع فهذا خير كثير لهم فى القيادة وخير للشعب فى العيش السعيد، وعليهم أن يعدلوا بينهم فى الحقوق والواجبات؛ فالعدل والمساواة فى كل شىء بين أبناء الشعب هو أساس الحكم الرشيد.

ومن الأمور المهمة التى وجه الشاعر الأنظار إليها كى يحاربوها، ولا ينجرفوا أمامها الشائعات أو كل ما ينال العرب من عيوب تنسب إليهم زوراً وبهتاناً، وهذا ما وضعه الشاعر فى مقطعة بعنوان "العرب والسياسة"(١)؛ وفيها يرد على شاب ألمانى قال له: إن ابن خلدون قال إن العرب أبعد الناس عن السياسة؛ فرد عليه بقوله: يريد ابن خلدون قبل دخول العرب فى الإسلام؛ ثم ترجم هذا كله فى هذه المقطعة؛ يقول:

عذيرى من فتى أزرى بقومى ** وفى الأهواء ما يلد الهذاء
يقول العرب ظلوا فى جفاء ** وما عرفوا السياسة والدهاء
سلوا التاريخ عن حكم تملت ** رعاياه العدالة والرخاء
عزوف النفس عن ترف ذكور ** لعقبى من أجاد ومن أساء
همام كان سامره وأقصى ** بلاد فى مهابته سواء
هو الفاروق لم يدرك مداه ** أمير هز فى الدنيا لواء

قام الشاعر بمهمته الحقيقية فى الدفاع عن قوميته وعروبته، ووضع الأمور فى نصابها الصحيح، ووقف شامخاً مدافعاً عن أهله ضد التهم التى توجه إليهم جزافاً دون دليل؛ فإذا كان الشاب الألمانى- عن جهل- ذكر ما قال العالم الاجتماعى ابن خلدون عن العرب والسياسة؛ كان على الشاعر أن يوضح له ما فهمه خطأ عن هذا العالم فالعرب مع الإسلام عرفوا كل شىء فى الحكم

(١) انظر: الديوان ص(١٤).

والسياسة القائمة على العدل والمساواة والحرية والقضاء والفصل بين الناس وتنظيم الجيوش وعقد المعاهدات ونشر الأمن فى ربوع الوطن الإسلامى وفتح البلاد بدين الله، والقضاء على ما حل بالناس من ظلم وقهر وفساد، ومن كبار قادة الإسلام وخلفائه هذا الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل عمر ابن الخطاب الذى نشر العدل والأمن والسلام فى ربوع البلاد التى فتحها جيش الإسلام؛ فلم يشبه عمراً قائد غيره فى عدله وقضائه وشجاعته.

وفى قصيدة أخرى بعنوان: "المعارف والصنائع"[1]. يقول الشاعر (من الكامل):

أيعاتب الزمن الذى لا يسعد ** وبنوه فى مهد البطولة هجد
مهلاً فما هو بالملوم ومن رمى ** سهم الملامة نحوه فمفند
لو أفرغوا فى وسعه ما جل من ** عمل لأغدق فيه عيش أرغد
أرأيت كيف شدت بلابل سعده ** وزهت ببهجتها غصون ميد
إذ أنفق الأسلاف فى سبل العلا ** أقصى الجهود ولم يفتهم مقصد

قدم لقصيدته بهذه الأبيات التى تكشف عن موضوعه الذى يريد أن يذكر أمته به؛ فهل عتابنا على الزمن أو على من يعيشون فيه ولا يعملون لأنهم ركنوا إلى الكسل والخمول؛ إن الملام لا يوجه إلى الزمن؛ بل إلى أبناء الزمن الذين أضاعوه ولم ينتهزوا ساعاته وأيامه وسنيه فيما يفيد، ولو اغتنموا ما فى زمانهم من فرص ضائعة واستثمروها لكان لهم كما كان لآبائهم من مجد وحضارة عاشت عليها كل أمم الدنيا، وها هو يتابع المسيرة مذكراً إياهم بما كان عليه الأجداد والآباء من مجد وحضارة؛ يقول:

كنا بنى الإسلام أصدق لهجة ** وأصح عهداً بالوفاء يؤكد

(١) انظر: الديوان ص(٧٣).

عقد التواخى فى الديانة بيننا ** نسباً، قرابته أشد وأفيد
ما سام ذو رأى سديد مطلباً ** إلا غدا بيد المعونة يعضد
ولنا نفوس لم تنط آمالها ** إلا بما هو فى المعالى أمجد
تنضى عزائم كالسيوف صرامة ** لكن لوفر طعانها لا تغمد
كنا بدور هداية ما من سنى ** إلا ومن أنوارها يستوقد
وإذا تكامل واستوى بدر بدا ** فى أفق طلعته السنية فرقد
كنا بحور معارف ما من حلى ** إلا ومن أغوارها يتصيد
ما صرصرت أقلامنا فى مهرق ** إلا رأيت الدر فيه ينضد
من كل معنى يبهر الألباب أو ** نسج يقوم له البليغ ويقعد
ويقوم فينا للخطابة مصقع ** فترى بنات الفكر كيف تولد

هاهو يذكر الشباب بما كان عليه الآباء والأجداد المسلمون؛ كانوا أصدق حديثاً، وأوفى عهوداً، وكان بينهم وبين إخوانهم من أهل وأصحاب الديانات الأخرى حب ومودة، وكان الإسلام هو النسب مهما تباعدت القرابات واختلفت العائلات والقبائل والجنسيات؛ فأهل البلاد التى فتحت بالإسلام هم أهل وطن واحد وأهل دين واحد، وكان صاحب الرأى السديد يؤيد كذلك برأى إخوانه ويعضد بمعونتهم ومشورتهم وينفذ بسواعدهم وهمتهم، وكانت نفوسهم لا تقنع إلا بمعالى الآمال وسامى الأمجاد؛ لأن عزائمهم جادة تطمع فى البناء وتطمح إلى الإعمار، وتدعو إلى الوحدة والاتحاد، وهى قاطعة فى تنفيذ وعودها وإنفاذ عهدها كالسيوف صرامة، وكانوا بدور هداية تنير الطريق لكل سالك أبواب الخير لينشر الهدى والرشاد بين الناس، كانوا هم العلماء العارفين الذين نشروا نور العلم والحضارة فى العالم أجمع، فمعانيهم تبهر العقول ونسيج عباراتهم يعلو عقول ذوى الألباب، وخطباؤهم يمتحون من بنات الفكر الراقى أرقى المعانى وأنضر الأساليب وأبلغ العبارات.

ومن الأمراض الاجتماعية التى حذر منها الشاعر الاستدانة ومد اليد للغير وسبب هذا هو الإسراف والتبذير، وفى أبيات بعنوان "فى الدين"[١]، يقول الشاعر:

أتكسب خمساً وتنفق ستاً ** ضللت لعمرى سبيل الأريب
هو الدين إن جئته فارتقب ** نهار الذليل وليل الكئيب
وطعم الهوان- وما ذقته- ** أمر من الموت قبل المشيب

حذر الشاعر الناس من الوقوع فى الدين بسبب الإسراف والتبذير، وعلى الإنسان الطبيعى المستقيم أن يصرف أقل مما يكسب ليوفر شيئاً ليوم آخر قد لا يجد فيه عملاً حتى لا يسلم نفسه للتبذير والإسراف وبالتالى يستدين يمد يده لغيره فتتراكم عليه الديون، وهو لا يعلم أن الدين ذل بالنهار، وهم بالليل، وطعم الهوان فى الدين، وهو أمر من الموت قبل المشيب، وله فى الدين- أيضاً- بيتان يقول فيهما[٢]:

يا غامساً يده فى الدين إنك قد ** غمستها فى صديد خلته عسلا
والدين للمال سم ناقع فإذا ** ما اندس فى ثروة أودى بها عجلا

ويحذر أيضاً من الدين هنا فكل من غمس يده فيه يظنه عسلاً ذاق مرارته بعد، والمستدين هو من يشرب هذا السم الناقع الذى إذا ما دخل المال أو الثروة قضى عليها سريعاً.

وقال الشاعر فى بيتين له بعنوان: "الذل فى البطالة"[٣]:

لا يرتجى العز شعب ظل فى وسن ** من البطالة لا سعياً ولا أملا

---

(١) انظر: الديوان ص(٣٠).
(٢) انظر: الديوان ص(١٤٧).
(٣) انظر: الديوان ص(١٥٠).

فالـدريـسموإلى جيـد الفتـاة وإن ** حـام النعـاس علـى أجفانهـا نـزلا

ربط الشاعر بين صورتين صورة الشعب الذى أصيب بداء الكسل والبطالة والركون إلى النوم وعدم العمل فكيف ينال عزه وكرامته ومجده، وبين هذا العقد الثمين من الدر والجواهر الذى هو فى رقبة الفتاة الحسناء يزين جيدها ويطل مرتفعاً يراه كل الناس، فإذا حل النوم بعين الفتاة سقط العقد من رقبتها وهوى؛ بهذا الربط يدعو الشاعر أبناء أمته إلى العمل والكفاح والبعد عن الكسل والركون إلى النوم والبطالة.

وإلى الحاكم المسلم فى كل بلاد العالم الإسلامى وجه الشاعر قصيدته التى تحمل عنواناً هو: "إلى الحاكم المسلم"[1]؛ فيها النصح والإرشاد؛ لأنه المسئول الأول عن الوطن والمواطنين؛ يقول فيها:

رزقـت جاهـاً فخـل العـزم يحميـه ** والعـز حـصن وتقـوى الله تبنيـه
قلـدت حكمـاً ومنهـاج السياسة أن ** ترعـى الـشريعة فيمـا أنـت قاضـيه
أنـت الهمـام الـذى يقـضى الليـالى فـى ** صـحو مـن الحـزم لا فـى سـكرة التيـه
ولـست أنـت كزيـد إن يـصب هـدفاً ** أولا يـصب قـل لاحيـه ومطريـه
بـل أنـت كالبـدر يـدرى النـاس قاطبـة ** لـو حـاد طرفـة عـين عـن معاليـه
يجتـاز سـيرتك النقـاد فـى مـلأ ** أو فـى طـروس بلـوم أو بتنبيـه
والـشعب كالـدوح يـستمرى الغيـور لـه ** أخـلاف مزنـة عرفـان فيحييـه
ولا فـلاح إذا مـا قيدتـه يـد ** عـن النهـوض إلى أقـصى أمانيـه
ومـن يذقـه رحيـق الأمـن يـرع لـه ** حـسن الـولاء وبـالأرواح يفديـه
ومـا الـولاء سـوى مهـر لهمـة مـن ** يـرى سمـاء الهـدى أعلـى مراقيـه
فـإن تـضع لبنـات فـى بنـاء عـلا ** تنـافس القـوم فـى إنجـاز باقيـه

(١) انظر: الديوان ص(١٨٣).

وإن نهـضت لخـصم يـوم ملحمـة ** كـانوا الأسـنة طعنـاً فـي تراقيـه

أرشد حكام المسلمين فى كل المعمورة بصفتهم مسئولين أمام الله عن رعاياهم وقد قلدوا هذا الحكم وتلك المهمة الكبيرة وهذا الجاه العظيم؛ ولا بد أن يؤدوا هذه المسئولية على خير وجه فمن رزق جاهاً لا بد أن يحميه بالعزم والقوة، ومن رزق عزاً فلا بد أن يحصنه بتقوى الله، ومن قلد حكماً فلا بد من إعمال قانون الشريعة وأحكامها فى سياسة الدولة، وأمور قضائها، وكل حاكم مسلم مهموم بقضايا أمته وشعبه، وهو الجدير بهذه المسئولية ويقضى ليله مفكراً فيما يصلح أحوال أمته، وكل عين ترقبه وترقب أعماله وتحاسبه على ذلك؛ فهو ليس كآحاد الناس، والنقاد المتابعون للحاكم يتفقدون خطواته خطوة خطوة، وحركة حركة، وعملاً عملاً ويبدون رأيهم وما يريدون منه كى تتصلح الأحوال؛ أما الشعب فيحب من يسهر على راحته ويوفر له حاجاته، ومن يفكر فى سلب حقه أو الاعتداء عليه لا يرحمه أبداً، وما الولاء والانتماء إلا وقد بنى على الحب والإخاء والرعاية؛ فإذا سلك الحاكم سبل الخير تبعه شعبه وسار خلفه فى حالتى السلم والحرب، وإذا سلك طريقاً آخر فيه ذل الشعب وضياع حقوقه ثار الشعب على حاكمه فأسقطه وأتى بآخر.

ثم يضيف الشاعر إرشادات للحاكم يجب عليه أن يأخذ بها؛ فيقول:

حُلـى السياسة حلـم إذ يـزل فتـى ** لا يعـرف النـاس شـراً فـي مساعيه

وإن تبـارى ولاة فالفخـار لمـن ** يسوس حـراً بإصـلاح وتوجيـه

وللـرئيس عيـون مـن بطانتـه ** تفـرى الظـلام وتـورى مـا انطـوى فيـه

أوفـى البطانـة عهـداً مـن يبلـغ مـا ** دراه مـن غـير تزويـر وتمويـه

والعبقريـة والـشورى إذا التقتـا ** علـى بـساطك قـرت عـين رائيـه

يـستطلع المستـشير الـرأى يردفـه ** صـفاء أفئـدة كانـت تجافيـه

تـسود بـالحكم أحقابـاً وذلـك مـا ** أعنـى إذا قلـت: ليـت الله يبقيـه

والخلد للصيت والرأى الذى ازدهرت ** به الصحائف واستدت مراميه

فعلى الحاكم المسلم أن يتحلى فى أمور السياسة بالحلم كى ينجح فى قيادة الأمة؛ فيتحمل كل من يخطئ يعفو عنه ويصفح لأن العفو والصفح يؤلف القلوب، ويجعل الشرير ينزع عن شره، وعليه أيضاً أن يختار له بطانة قوية صالحة ترى ما لا يراه فترشده إلى صالح الأمة؛ فهم عيونه اليقظة وهم أنوار له على الطريق لأن أخبارهم التى يجمعونها تصب فى مصلحة المجتمع، وإذا اجتمعت عبقرية الحاكم والشورى الصحيحة فى بطانته عاش الناس فى رخاء وسعدوا بالأمن والأمان فى وطنهم؛ فكان منهم الدعاء المخلص للحاكم بالبقاء والتوفيق، وقدموا له كل رأى سديد يبقى مدى الدهر وكل صوت عاقل تسدد به الآراء السديدة.

ثانياً: نظرات فنية فى شعر الخضر حسين

من المعلوم أن الأدب شعراً ونثراً يرتبط بالحياة لا ينفصل عنها، وهو انعكاس لها وصدى لما يطرأ عليها من أحداث ومتغيرات، وقيل: "إن الشاعر ابن بيئته، وهو المترجم الفنان الذى يترجم أحاسيس مجتمعه، ويرسم صورة صادقة لما يجرى فيه من مواقف تهم إخوانه ومشاكل تعترض حياتهم؛ كى يجد لها حلولاً ناجعة تسير أحوالهم، وتمضى بها إلى بر الأمان.

والناظر إلى الوطن العربى الذى نعيش فيه يلمس هذا واضحاً؛ فقد ابتلى الوطن العربى بدورات استعمارية منذ القديم؛ كالتتار المشارقة والصليبيين المغاربة، وما ذاك إلا طمعاً فى خيرات الوطن العربى واستغلالاً لموقعه المتوسط من العالم كرابط بين شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، وهذا هو ديدن كل الغزاة الذين أتوا إليه.

من هؤلاء الشعراء شاعرنا محمد الخضر حسين، وقد تناولنا سلفاً نماذج من شعره الاجتماعى على مستوى الوطن العربى تناول الشاعر فيه أموراً كثيرة ترجمت أحوال الوطن وأبنائه ومواقفهم حيال المستعمر الذى احتل أجزاء من وطنهم، ورسم الشاعر مبادئ مهمة يجب أن يلتزمها العربى من الأخلاق كالصدق والشجاعة والمروءة ومراعاة حقوق الآخرين من أبناء المجتمع الصغير كالأسرة وعلاقة أفرادها بعضهم مع بعض، وأبناء المجتمع الكبير كالتعاون وحقوق الجوار، والعلاقات بين كل أبناء الوطن العربى، وكذلك تناول الداءات التى تهدم هذه العلاقات كالحسد والحقد والاعتداء بجميع أشكاله، وتناول كذلك الأخلاق السيئة ليصرف الناس عنها كالإسراف والتبذير التى يتعرض لها الإنسان ولا يتخلص منها حتى أصبحت كالمرض والعدوى التى تسير فى هدم العلاقات سير النار فى الهشيم.

وكل هذا عرضه الشاعر فى صورة شعرية رائعة تتضح من خلال ما سنتناوله من أمور فنية خاصة بهذا الفن الراقى؛ فمثلاً:

التجربة الشعرية:

خاض الشاعر هذه التجربة الاجتماعية وعبر عنها بعاطفة صادقة وشعور غاية فى الرقة وإحساس صادق معبر عن مكنون صدره، وصدق العاطفة والإحساس ورقة الشعور مما يزيد التجربة الشعرية روعة وتأثيراً فى المتلقى وقبولاً لها، "وهذه آية الشاعرية الأولى؛ لأن الشعر تعبير، والشاعر هو الذى يعبر عن النفوس الإنسانية، فإذا كان القائل لا يصف حياته وطبيعته فى قوله؛ فهو بالعجز عن وصف حياة الآخرين وطبائعهم أولى، وهو ليس بالشاعر الذى يستحق أن يتلقى منه الناس رسالة حياة وصورة ضمير"[1].

(١) انظر: ص(١٣٣) شعراء مصر وبيئاتهم للأستاذ عباس العقاد ط ثالثة، دون تاريخ.

والتجربة الشعرية الصادقة ذات العاطفة الصادقة باقية على مر الزمن مهما تعرضت لها المحن ووقفت أمامها العقبات، وهذه قيمة إنسانية تفيد الحياة وتبرر تعب الشاعر فى تصوير تجربته، وما أصدق شاعرنا فى تعبيره عن تجربته التى خاضها فى هذا الفن الصادق المؤثر الشعر الاجتماعى؛ فهو الذى حمل هموم وطنه الذى استعمره الغربيون واحتله المغتصبون من كل شكل ولون، وهو الرحالة الذى ارتحل عن وطنه الأول تونس إلى الشام تارة وإلى الحجاز تارة وإلى مصر تارة، وقد صب جام غضبه على هؤلاء المغتصبين الطغاة، وهو الذى عالج أو حاول علاج أمراض وداءات حلت بوطنه الكبير، كل هذا بقلب كبير رحيم وصدر رحب فسيح؛ فكان محارباً فى ميدان الأدب بقلمه الذى أقض مضاجع الطغاة الذين اقتسموا بلدان الوطن العربى فيما بينهم بعد أن وضعوا حدوداً تفرق بين أعضاء الجسد الواحد، وصنع ذلك دون كلل أو ملل؛ كما حارب هؤلاء الذين حاولوا أن يقسموا أبناء الوطن الواحد من حيث عقائدهم بمحوها وإحلال عقائد أخر ما أنزل الله بها من سلطان؛ كالبهائية "والإله هو البهاء"، والقاديانية وغلام أحمد هو رأسها؛ بل لقد زعموا أنهم أنبياء، وهذا مخالف لكل شرائع السماء.

ويمكننا القول بأن العاطفة مرتبطة بالحالة الشعورية للشاعر واستعداده النفسى؛ فهى التى توجهها وجهة معينة، ومن ثم استعملها النقاد فى الحكم على الأديب والأدب معاً، ولقد أدرك النقاد العرب آثار العاطفة، وملابساتها وما تؤلفه من فنون نظمية؛ فقد بنى أبوتمام- حبيب بن أوس- الطائى المتوفى ٢٣١هـ أساس كتابه "الحماسة" على العاطفة.

وبلور- أبوعلى- الحسن بن رشيق- القيروانى المتوفى ٤٥٦هـ أحاديث سابقيه عن الانفعالات، وما تنتجه من فنون، وذكر البواعث التى تحرك

عواطف الشعراء؛ فقال: "قواعد الشعر أربع: الرغبة والرهبة والطرب والغضب؛ فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء، والتوعد والعتاب الموجع"(١).

وتبدو قيمة العاطفة فى صدقها؛ أى فى قدرتها على جعل العمل الأدبى يشق طريقه، ويبرز بدلالة، ويلوح برسالة، وليس هو الصدق العلمى ولا الأخلاقى؛ إنما المراد الصدق الذى ينم عن توافق العمل الأدبى مع الحياة دون نفور أو شذوذ. إنه الصدق الفنى النابع من موضوع العمل الفنى، وهذا ما عناه الناقد القديم عندما قال: "أحسن الشعر أصدقه"؛ أى الشاعر الصادق هو الذى يمحو ذاته بكل أخلاقياتها أمام بعض المشاهد أو المواقف ما دامت تعبيراته بعيدة عن المفارقات، وقال بعضهم: "أحسن الشعر أقصده"؛ فالشاعر له أن يبالغ فيما يعبر به القول شعراً فقط، فما استوفى أقسام البراعة والتجويد أو جلها من غير غلو فى القول ولا إحالة فى المعنى، ولم يخرج الموصوف إلى أن لا يؤمن بشىء من أوصافه لظهور السرف فى آياته، شمول التزيد لأقواله، كان بالإيثار أو الانتخاب أولى"(٢).

وعن الصدق فى الشعر تحدث "خليل مطران" الذى صب جام غضبه على أولئك الشعراء فى قوله: "فإذا صح أن الأديب رسام يصور أحوال زمانه، فكيف

---

(١) انظر: العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ١ ص(١٢) ت محمد محيى الدين عبدالحميد سنة ١٩٧٢م.

(٢) انظر: عمود الشعر العربى فى ميزان النقد الأدبى ص١٣٢، د. عبدالفتاح على عفيفى، ط أولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، مطبعة السعادة، القاهرة.
وانظر: مقدمة المرزوقى لشرح الحماسة، دون تاريخ.

يكون شاعراً حشرياً مترفاً جواباً للبلاد القصية فى اللحظات وهو قاعد، عالماً بكل ما يطرأ على أحقر قرية من القرى البعيدة، وهو لم ينقل إليها قدماً؛ ثم نقرأ شعراً من نظمه، وإذا سرج الزيت قد حل محل شمس الكهرباء وقمر الغاز وقطار الجمال التى تحدى على مهل قد أصبح بديلاً من قطار الحديد الذى ينتهب الآفاق وصفوف الأشجار المجردة فى الصحراء قد قامت مقام أعمدة الأسلاك البرقية والمدن العامرة الضخمة قد اضمحلت بمنتدياتها وشوارعها الفسيحة ومركباتها، وقامت على أطلالها القرى ذات السقوف الواطئة والمداخن السوداء والأزقة الضيقة[1].

والصدق فى التجربة الشعرية هو الذى يمنحها القوة والقدرة على إثارة القارئ وهز مشاعره، ولا يراد بصدق التجربة أن تكون مطابقة للواقع والحقيقة؛ بل مطابقة لوجدان الشاعر معبرة عن مشاعره وانطباعاته مهما كان هذا الوجدان وتلك المشاعر؛ فإذا خلت التجربة من هذا الصدق سقطت قيمتها وكانت زيفاً وبهرجاً"[2].

وعلى الشاعر الصادق أن ينفعل بالتجربة وأن ينقلها من عالم الشعور إلى عالم الحس والمشاهدة والواقع فى صورة موحية، يتجاوز فيها الأديب منطقة العقل البارد إلى مجال العاطفة الحارة؛ فيصور معاناته تصويراً موحياً مؤثراً. وكل ما ذكرنا من أمثلة شعرية قصائد ومقطعات للشاعر الخضر حسين فى القسم الأول استطاع الشاعر أن ينفعل بتجربته الشعورية انفعالاً واضحاً عند

---

(١) انظر: قطوف من النقد الأدبى المعاصر فى الأداة والمنهج والتوظيف ص(٨٨)، د. فتحى محمد أبوعيسى ط سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) انظر: ص٧٧، ٧٨. النقد الأدبى الحديث فى مذاهبه وقضاياه، د/عبدالفتاح على عفيفى طبعة ١٩٨٦م.

نقلها من عالم الشعور الباطنى إلى عالم الحس والواقع المشاهد؛ ففى قصيدته "بعض أمراضنا الاجتماعية" يقول الشاعر، ويتساءل ويتمنى ويعلن أن الشرق لا بد أن يعود له إشراقه كما كان، وتعود له عزته التى حكم بها العالم كله يوماً ما، ولو بذل أهله الغالى والنفيس من المال والدماء يقول:

أيعود للشرق الحماسة والإباء ** فتعود عزته ويبتهج العلاء؟
قالوا استقام الشرق وهو يسير فى ** نهج الفلاح وفى عزيمته مضاء
ولشد ما خضنا الخطوب ولم نرد ** إلا العلا وجرت بوادينا دماء

لم يحتفظ بهذا الإحساس الراقى لنفسه، ولم يختزنه فى عقله، ولم يحبسه فى شعوره؛ لكنه أظهره فى هذه الصورة التى أشركنا معه فيها كى نحس إحساسه، وننفعل بتجربته كما انفعل هو بها، وأظهرها فى هذه الصورة المشرقة صادقاً فيما شعر به وأحسه صادقاً فى إبراز هذا الشعور والإحساس الباطنى إلى عالم الحس والمشاهدة والواقع فى صورة موحية تجاوز فيها منطقة العقل البارد إلى مجال العاطفة الحارة.

ونجده فى قصيدة "زهرة الدنيا أخلائى"؛ يقول:

يوم بين لم أذق من قبله ** لوعة كالنار حراً وهياجا
ودعوا والصبح يحدو بالدجى ** حاملاً بين جنبيه سراجا
وامتطوا سابحة فى الجو لا ** لقيت من أختها الريح هياجا
جيرة أصفيتهم ودى ولا ** يجد المذق من الود رواجا
قابلوا ودى بود وبنوا ** من حفاظ الود للعهد سياجا
لا أبالى إن أنا جاورتهم ** أفراتاً كان وردى أم أجاجا
زهرة الدنيا أخلائى ولو ** شفنى البين وأعيانى علاجا

فيها تجد أثر العاطفة، وانفعال الشاعر بتجربته الشعورية واضحاً كل الوضوح عند نقلها من عالم الشعور الباطنى إلى عالم الحس والواقع المشاهد؛

فالعاطفة التى حركته هى شعوره بالحزن والكآبة ولوعة النار التى أحس بها فى يوم فراق أحبابه وأخلائه، وقد عزموا على الرحيل فى الصباح الباكر عند ركوبهم الطائرة التى ستطير بهم بعيداً عنه، وهم الذين أصفاهم وداً وقابلوا هذا الود بود مثله، وكان فى ذلك سعادته، وهم الآن يفارقونه وهم زهرة دنياه، وكان فى جوارهم لا يبالى بشىء من أمور الحياة؛ لأنها كلها طيبة فى جوارهم.

الخيال الشعرى:

وكان من باب تخصيب التجربة الشعرية عند الشاعر الخضر حسين أن أقامها على الخيال الشعرى الذى له دور لا ينكر فى إثارة المشاعر؛ "فالخيال فى العمل الأدبى يهبه الحياة؛ لأنه تصوير الأشخاص والأشياء على نحو يجعلها صوراً تسرى فى النفوس، وخواطر تعبث بالمشاعر، والأديب الموهوب الذى يعرض معانيه فى أبهى صورة، بعد أن يستعير خياله صوراً حية، تكمل الصورة الأصلية، وتضيف إلى جمالها جمالاً.

وللخيال- أيضاً- دوره فى تهييج المشاعر حين يطلق الأديب من خياله صوراً رفافة بالحسن تعكس على الصورة التى حدد معالمها أضواء من السحر والفتنة والجمال والجلال عليها؛ فإذا انفعل الأديب بتجربته التى تلقفها من واقع حياته، نام كل شىء سوى شعوره بها، ثم تتخلق صورة التجربة فى نفسه، ثم يصوغها خياله عملاً فنياً رائعاً، ويعتمد الخيال على تداعى المعانى- تواردها على الذهن- واستخلاصها الملائم منها والتأليف بينها على نحو جديد، وتداعى المعانى يمد الخيال بواسطة التشابه أو التضاد- التباين- أو الاقتران المكانى أو الزمانى"(١).

(١) انظر: ص١٨٨ موسيقى أوزان الشعر العربى د. السيد مرسى أبوذكرى طبعة سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. رقم إيداع دار الكتب ٣٩٢٥.

وقد وصف البارودى رب السيف والقلم لغة الشعر فقال: "إن الشعر لغة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألائها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان، فينفث بألوان الحكمة يتبلج بها الحالك، ويهتدى بدليلها السالك، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه، وائتلفت معانيه، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى، سليماً من وصمة التكلف، بريئاً من عثرات التعسف، غنياً عن مراجعة الفكرة؛ فهذه صفة الشعر الجيد"(١).

يقول الشاعر فى قصيدته "كرم الأصل":

تقلدت فى صدر الحياة عزيمة ** وباكرت تجنى العلم والعيش رابغ
فكنت ترى الأيام غراً سواسياً ** كأسنان مشط ليس فيها زوائغ
وكنت تخال الناس طراً ملائكاً ** لكل امرئ برد من الطهر سابغ
وتحسب من يشكو الزمان وأهله ** يزور فى تخييله ويبالغ

تداعت المعانى هنا على ذهن الشاعر وتوالت فأمدت الخيال قوة تصوير عن طريق التشابه؛ فقد شبه الأيام فى استوائها وتشابه أحوالها فى ذهن صديقه بأسنان المشط المستوية فى الطول؛ فصديقه صاحب قلب صاف عنده كل الأشياء سواء، وعنده لحسن نيته وصفاء سريرته كل الناس- أيضاً- أطهار أنقياء فشبههم بالملائكة فى الطهر والعفة، وكل فرد منهم يلبس ثوباً صنع من الطهر والعفاف لا يفارقه، وصديقه طيب القلب يحسب أن من يضيق ذرعاً بالزمان وصروفه والدهر ومصائبه مزوراً لا يرى الحق؛ بل لا يفرق بين الخير والشر؛ فكل الناس فى رأيه أخيار أطهار؛ كل هذا عن طريق التشبيه الذى يقرب بين الأضداد ويجمع المتقابل من المعانى.

(١) انظر: ص(ل)، ديوان محمود سامى البارودى، الطبعة الأولى، القاهرة.

ويقول فى قصيدته "المعارف والصنائع"[1]:

ولنـــا نفـــوس لم تـــنط آمالهـــا ** إلا بمـــا هـــو فـــى المعـــالى أمجـــد

تنـــضى عـــزائم كالـــسيوف صـــرامة ** لكـــن لـــوفر طعانهـــا لا تغمـــد

كنـــا بـــدور هدايـــة مـــا مـــن ســـنى ** إلا ومـــــن أنوارهـــــا يـــــستوقد

وإذا تكامـــل واســـتوى بـــدر بـــدا ** فـــى أفـــق طلعتـــه الـــسنية فرقـــد

كنـــا بحـــور معـــارف مـــا مـــن حلـــى ** إلا ومـــــن أغوارهـــــا يتـــــصيد

فيها نجد المعانى تتداعى- أيضاً- عن طريق التشابه المعقـود بـين هـذه العزائم القوية القاطعة الناتجة عن النفوس الكبار التى ترنو إلى المجد، والسيوف الباترة الطاعنة رقاب الأعداء وهى لا تغمد أبداً، وكذلك التشابه بين أبناء الأمـة الإسلامية يهدون الناس إلى الحق والخير؛ فيخرجونهم من الظلمات إلى النـور، وبين البدور والكواكب الدرية التى تهدى الـسائرين الـسالكين إلـى الطريـق الصحيح كى يصلوا إلى بر الأمان، وما من بدر استوى ثم تكامل إلا ظهر بعده فرقد نجم آخر يضئ معه، وكذلك تداعت المعانى عن طريق هذا التشابه الـذى نسجه الخيال فى قوله: كنا بحور معارف وعلوم، وكل من يريد اسـتخراج در ولؤلؤ منها وجد ما يرضيه.

وقد يستحضر الخيال معانيه عن طريق التضاد، كما استحضرها من قبـل عن طريق التشابه كما فى الأمثلة والشواهد التى عرضناها سلفاً، ومـن أمثلـة التضاد الذى به يستحضر الخيال معانيه، قول الشاعر الخضر حسين:

لـيس الحيـاة نمـاء الجـسم فـى أمـد ** ولا الحمـــام تـــوارى الجـــسم بالنفـــد

إن الحيـــاة هـــى الأيـــام زاهـــرة ** ولـــيس بـــالموت غـــير العـــيش فـــى نكـــد

ولا يطيـب الفتـى عيـشاً إذا نـسجت ** فـــى أرضـــه مزنـــة والنـــاس فـــى جـــرد

(١) انظر: الديوان ص (٧٣).

فعن طريق التضاد استدعى الخيال معانيه؛ فمن استحضر فى ذهنه الحياة، خطر له معنى الموت وهو الحمام فى البيت الأول، والموت فى البيت الثانى، ومن استحضر معنى نماء الجسم فى صحة وعافية خطر له معنى هلاك الجسم وفناؤه وتواريه، ثم يضيف الشاعر عن طريق التضاد الذى يستحضر الخيال الشعرى معانيه شيئاً آخر، أنه لا يطيب عيش الفتى إذا كان غنياً سعيداً وغيره فقير تعيس؛ فمن استحضر معنى الغنى والسعادة خطر له معنى الفقر والبؤس. واستدعاء الخيال معانيه عن طريق التضاد يتضح فى قول الشاعر:

وفى الشر ما يندس تحت ظهارة ** من الخير لا لون ينم ولا ريح
يحوك الخطيب الخب قولاً صباغه ** أنيق وما تحت الصباغ قبيح
ويصفو رواء الماء والطعم علقم ** ويبسم ثغر والفؤاد قريح
وما كل ذى رأى يدارى حقيقة ** توارت فتبدو والقناع طريح

تداعت المعانى هنا عن طريق التضاد؛ فمن تخيل الشر واستحضره فى ذهنه خطر له الخير؛ فهناك من الشر ما يختفى تحت ظاهر الخير، فمن استحضر الخفاء خطر له الظهور والوضوح وذلك كله فى البيت الأول، وفى البيت الثانى تداعت المعانى عن طريق التضاد؛ فمن تخيل الأناقة والحسن خطر له معنى القبح؛ فهاهو الخطيب المخادع يقول قولاً ظاهره الخير وباطنه الشر والوقيعة بين الناس، وفى البيت الثالث تتداعى المعانى عن طريق التضاد- أيضاً- فالماء قد يصفو ويصفى من كل الشوائب وطعمه مر فمن تخيل الصفاء والعذوبة خطر له المرارة؛ لأنه لا ارتباط بين صفاء الماء وعذوبة طعمه ومرارته إلا بالتضاد، ومن تخيل ابتسام الفم خطر له ألم الفؤاد عن طريق التضاد أيضاً، وفى البيت الرابع تداعت المعانى عن طريق التضاد أيضاً؛ فمن تخيل التوارى خطر له الظهور؛ فمهما توارت الحقيقة ستبدو يوماً ما إذا كشف عنها القناع.

وهكذا يعين الخيال الشاعر، على تأليف صور من تجاربه ومشاهداته، ويلائم بين حقائقها المبعثرة، ويستخرج منها أشكالاً مثالية لحوادث ماضية وبذا ينقل الأشياء من واقعها الحسى إلى واقع جديد، وقد يؤلف بين المتباعدين، كما يبعث الحياة فيما لا يعقل، ولا يخفى ما للطباق فى الشعر من تأثير؛ "فالطباق بدوره يحدث موسيقا داخلية فى البيت من خلال ذلك التضاد الذى يحدثه"(١).

الموسيقى:

وكما أقام الشاعر تجربته على العاطفة الصادقة والخيال المبدع الذى أعطى الحياة للتجربة الشعرية ذات العاطفة الصادقة؛ كان للموسيقى الشعرية دور مهم فى تكوين هذه التجربة وتخصيبها؛ فالموسيقى فى الشعر عنصر مهم لا غنى عنه، ولا يختلف فى ذلك أحد من النقاد والأدباء القدامى والمحدثين؛ سواء كانت الموسيقى خارجية فى إطار الوزن والقافية أم داخلية فى إطار الإيقاع والنغم؛ ولأهمية الوزن والقافية فى موسيقى الشعر، حدد القدماء الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى"؛ ليفرقوا بين الأسلوب الشعرى الذى عماده الوزن، وبين الأسلوب النثرى الذى يعتمد على طرائق ليس من بينها الوزن، ولما كان الرنين الموسيقى أحد مقومات الشعر العربى؛ فقد لازمته القافية فى أبيات القصيدة، ولا يكون الشعر مقفى ويحسن إنشاده، دون تكرار حرف الروى فى أواخر أبيات القصيدة، وبذا يكون الروى عنصراً مهماً يلازم القافية ولا ينفصل عنها.

---

(١) انظر: ص٤٢، دراسات فى النص الأدبى العصر الحديث، د. محمد عارف محمود حسين، طبعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، مطبعة الشهداء، منوفية.

وإذا كانت الأوزان والقوافى، تحقق الطاقة الموسيقية فى العمل الشعرى، فيكون له وقع فى السمع، وأثر فى النفس؛ فإن جمهور الأدباء والنقاد اتفقوا على أن الشعر يرتبط بالعاطفة والشعور، أكثر من ارتباطه بالعقل والتفكير. يقول الشاعر أحمد شوقى:

والشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفة ** أو حكمة فهو تقطيع وأوزان[1]

ويقول الشاعر جميل صدقى الزهاوى:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه ** فليس خليقاً أن يقال له شعر

وهذا يعنى "أن الوزن والقافية وإثارة الشعور من الضرورى جداً توافرها فى الكلام حتى يكون شعراً؛ فإذا انفرد بالوزن والقافية فهو نظم، وإذا انفرد بالشعور وحده كان شعراً منثوراً، واجتماع الوزن والقافية وإثارة الشعور يخرج الكلام المنظوم عن إطار شعر المتون، وعلى هذا فالشعر الموزون المقفى هو الذى بعثته عاطفة متأججة من أجل إثارة عواطف الآخرين[2].

وتعد الموسيقى من العناصر المهمة التى لا تقل عن عناصر أخرى فى تمام التجربة الشعرية، والشعراء لا يستخدمون الموسيقى فى شعرهم لغرض الطرب فحسب؛ وإنما لتلافى النقص فى تعبيرهم؛ فشأن الموسيقى فى ذلك شأن الخيال؛ بل إنهم قد يستغنون فى بعض أبياتهم عن الخيال لكنهم لا يستغنون فى أى جزء من كلامهم عن الموسيقى؛ فهى والشعر صنوان مهما تقدم الزمان وارتقى الإنسان"[3].

---

(١) انظر: الشوقيات للشاعر أحمد شوقى، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان، دون تاريخ.

(٢) انظر: موسيقى أوزان الشعر ص: ١٠١ مرجع سابق.

(٣) انظر: ص (٧٨) النقد الأدبى الحديث فى مذاهبه وقضاياه د/ عبد الفتاح عفيفى طبعة ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م، ص: ٣٨ من اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د. محمد نايل، مطبعة العاصمة دون تاريخ.

وقد تخير شاعرنا الخضر حسين أوزاناً لهذا الغرض الاجتماعى الذى يستعرض فيه الأحوال الاجتماعية وعرضها بصورة واضحة ابتغاء الوصول إلى ما يسمو بها، أو علاج ما بها من قصور، أو محاولة الوصول إلى درجة الاستقلال عن الغير والاكتفاء بما هو متاح حسب ظروف المجتمع العربى الذى حمل همومه منذ شبابه الأول، وهذه نماذج لما قصدنا إليه من توضيح لون هذه الأوزان ودرجة ملائمتها للشعر الاجتماعى الذى هو محل الدراسة من شعر شاعر الأزهر فى قصيدة بعنوان "بعض أمراضنا الاجتماعية"؛ يقول:

أيعود للشرق الحماسة والإباء ** فتعود عزته ويبتهج العلاء؟

قالوا استقام الشرق وهو يسير فى ** نهج الفلاح وفى عزيمته مضاء

ولشد ما خضنا الخطوب ولم نرد ** إلا العلا وجرت بوادينا دماء

قلنا الدعارة لم تزل فى أرضنا ** ولرهطها فى كل حاضرة لواء

تلك الخمور تدار فى علن ولا ** لوم ينال المعلنين ولا جزاء

هذه القصيدة بلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين بيتاً نسجها الشاعر على وزن عروضى من البحر الكامل، وهو من بحور الشعر الطويلة التى تناسب وتلائم مثل هذه الموضوعات التى تحتاج إلى الشرح والتوضيح كما تناسب طول نفس الشاعر فى نظمه لها، والكامل يصلح لموضوعات كثيرة كالأغراض القصصية ويجود فى الخبر والإنشاء؛ ولذا كثر استعماله عند القدماء والمحدثين "وسمى كاملاً لكمال أجزائه وحركاته، وهو أكثر البحور حركات لاشتمال البيت التام منه على ثلاثين حركة، وقيل لأنه كمل عن الوافر الذى هو أصله، لجواز استعماله تاماً، والوافر لا يستعمل إلا مجزوءاً أو مقطوفاً.

وقيل لأن أضربه زادت على أضرب غيره من البحور؛ حيث لم يكن لبحر تسعة أضرب إلا هو"[1].

وفى القصيدة التى معنا نجد الشاعر قد صرع البيت الأول منها؛ يقول:

أيعود للشرق الحماسة والإبا ** زاد فى العروض سبباً خفيفاً (/٥) على ما آخره وتد مجموع وهو ما يسمى بالترفيل

٥/٥///٥//٥/٥/ ٥//٥/// **

متفاعلن متفاعلن متفاعلاتن ** زاد فى الضرب سبباً خفيفاً (/٥) على ما آخره وتد مجموع وهو ما يسمى بالترفيل.

فتعود عزته ويبتهج العلاء **

ولا يحدث التصريع إلا فى البيت الأول من القصيدة؛ فقد زاد فى عروض البيت ما يلائم الزيادة فى ضربه، ثم يعود العروض كما هو دون هذه الزيادة. وفى التصريع موسيقى صوتية لذيذة لا تخفى على أذن المتلقى المتذوق لهذا الشعر. والتصريع تدل فيه العروض على قافية البيت ورويها.

ومن القصائد التى نظمت على وزن الكامل التام قصيدة له بعنوان: "الرجاء أساس كل نجاح"؛ وفيها يقول:

سحب الفتى البدوى ذيل مراح ** **يزهى بسرح فى فلا ومراح**

٥/٥/// ٥//٥/// ٥/٥/// ** ٥/٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥/٥/

متفاعلن متفاعلن متفاعل ** **متفاعلن متفاعلن متفاعل**

ألف البطولة والسماح فما له ** **شغف بغير بطولة وسماح**

للبدو فيما كنت أدرى الفضل فى ** **نشء النفوس على مثال صلاح**

لا راح غير عصير مزن رائق ** **لا نای غير البلبل الصداح**

---

(١) انظر: ص(٧٣) موسيقى أوزان الشعر العربى، مرجع سابق.

لاتخطـــر الفتيـــات فيـــه بزينـــة ** وتـــــبرج بـــــين البيـــــوت وقـــــاح

ومن الأوزان الموسيقية التى نظم عليها الشاعر قصائده فى هذا الغـرض الاجتماعى وزن البسيط التام، "وهذا الوزن أكثر رقة وجزالة من الطويل ويقـام على "مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن" فى كل شطر، وقد ناسب عاطفة الـشاعر فى هذ الغرض الذى عالج فيه أدواء مجتمعه وحاول توجيه الأنظار إليها ليعيش الوطن كله فى سلام اجتماعى وأمن مجتمعى، وسمى هذا الوزن بسيطاً لانبساط أسبابه وتواليها فى أوائل أجزائه السباعية؛ ففى "مستفعلن" سببان متصلان – أى متواليان – يؤديان إلى انبساط الحركات فى عروضه وضـربه إذا خبنـا– أى حذف الثانى الساكن – ولا يجوز استعمال "فاعلن" الأخير تاماً أصلاً، ويـستعمل تاماً ومجزوءاً"(١).

ومن قصائد هذا الوزن للشاعر قصيدة بعنوان "الحياة الاجتماعية"؛ وفيها يقول:

لـيس الحيـاة نمـاء الجـسم فـى أمـد ** ولا الحمـــام تـــوارى الجـــسم بالنفـــد

إن الحيـــاة هـــى الأيـــام زاهـــرة ** ولـيس بـالموت غـير العـيش فـى نكـد

ولا يطيـب الفتـى عيـشاً إذا نـسجت ** فـى أرضـه مزنـة والنـاس فـى جـرد

وإنمـــا الـــشعب أفـــراد مؤلفـــة ** فـى هيئـة الفـرد ذو قلـب وذو جـسد

أمـــا الفـــؤاد فأربـــاب الـــسياسة إن ** همـوا بخـير فبـاقى الجـسم فـى رشـد

وإن ذكـــت أمـــة لانـــت قلادتهـــا ** بكـف قائـدها فـى الـسهل والـسند

٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥/ ٥//٥// ** ٥/// ٥//٥/٥/ ٥///٥// **

مـــتفعلن فـــاعلن مـــستفعلن فعلـــن ** مـــتفعلن فعلـــن مـــستفعلن فعلـــن

ومن الأوزان الموسيقية التى نظم عليها الشاعر هذا اللـون مـن الـشعر الاجتماعى وزن الطويل: "فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن" مرة فى كـل شـطر

(١) انظر: ص (٧٨) موسيقى أوزان الشعر العربى، مرجع سابق.

"وهذا البحر أول بحور الشعر وأتمها استعمالاً؛ حيث لا يجئ الجزء ولا الشطر ولا النهك فيه، وسمى طويلاً؛ لأنه أكثر البحور حروفاً، ولأنه إذ سرع قد يكون ثمانية وأربعين حرفاً، ولا يشاركه بحر آخر فى ذلك، ويتسع لكثير من معانى الرثاء والوصف والتاريخ والحماسة والفخر والقصص، مما حمل شعراء الجاهلية للجوء إليه لرواية قصص حياتهم فى بواديهم"(١).

ومن قصائد اللون الاجتماعى عند الشاعر الخضر حسين التى نظمت على البحر الطويل قصيدة بعنوان "كرم الأصل"، وفيها يقول:

تقلدت فى صدر الحياة عزيمة ... وباكرت تجنى العلم والعيش رابغ

٥//٥// ٥/٥/٥// /٥/٥// ٥/٥// ٥/٥/٥// ٥/٥//

فعولن مفاعيلن فعول مفاعلن ... فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

والعروض فيها مقبوضة بحذف الخامس الساكن، وكذا الضرب مثلها.

يقول فيها:

فكنت ترى الأيام غراً سواسياً ** كأسنان مشط ليس فيها زوائغ

وكنت تخال الناس طراً ملائكاً ** لكل امرئ برد من الطهر سابغ

وتحسب من يشكو الزمان وأهله ** يزور فى تخييله ويبالغ

سميرك سفر والدروس حدائق ** وإن أقبل الأستاذ فالبدر بازغ

تراوح بين الدرس والبيت دائباً ** لتحرز ما يصبو إليه النوابغ

وقد نظم الشاعر على هذا الوزن الموسيقى – أيضاً– مقطعة عنوانها هو: "لم أذق طعم الذل"؛ وفيها يقول:

إذا ما تلاقينا وطرفك طامح ** إلى عزة أطرقت طرفى تواضعاً

وإن تلقنى يوماً وأنفك شامخ ** رأيت فتى بين السماكين طالعا

---

(١) انظر: ص (٦٧) موسيقى أوزان الشعر العربى، مرجع سابق .

وما ذقت طعم الذل لكن أعافه ** كما عفت سماً فى فم الصل ناقعاً
ولا أرتدى بالكبر أسحب ذيله ** ولو جاء فى أسمى الأمانى طائعاً
٥//٥// /٥// ٥/٥/٥// ٥/٥// ** ٥//٥// ٥/٥// ٥/٥/٥// ٥/٥//
فعولن مفاعيلن فعول مفاعلن ** فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

ومن الأوزان التى نظم عليها الشاعر هذا اللون من الشعر الاجتماعى وزن "الرمل" فاعلاتن فاعلاتن مرة فى كل شطر.

ومن قصائد هذا الوزن الموسيقى قصيدة: "زهرة الدنيا أخلائى" وفيها يقول:

يوم بين لم أذق من قبله ** لوعة كالنار حراً وهياجا
ودعوا، والصبح يحدو بالدجى ** حاملاً من بين جنبيه سراجا
وامتطوا سابحة فى الجو لا ** لقيت من أختها الريح لجاجا
جيرة أصفيتهم ودى ولا ** يجد المذق من الود رواجا
قابلوا ودى بود وبنوا ** من حفاظ الود للعهد سياجا
لا أبالى إن أنا جاورتهم ** أفراتاً كان وردى أم أجاجا
زهرة الدنيا أخلائى ولو ** شفنى البين وأعيانى علاجا

"ويتسم هذا البحر بالرقة والعذوبة، ويجود فى موضوعات الأفراح والأحزان معاً، وفى الزهد، وسمى رملاً لسرعة النطق به لتتابع "فاعلاتن" فيه؛ لأن الرمل لغة: الإسراع فى المشى، ومنه الرمل المعروف فى الطواف، وقيل لشبهه برمل الحصير أى: نسجه لانتظام أوتاده وأسبابه"(١).

ومن قصائد هذا الوزن الموسيقى عند الشاعر الخضر حسين فى لونه الاجتماعى قصيدة بعنوان: "خائنو أوطانهم"؛ وفيها يقول الشاعر:

(١) انظر: ص(٧٧) موسيقى أوزان الشعر العربى، مرجع سابق.

عجـــت يومـــاً بريـــاض أجتنـــى ** عـــــبراً ممـــــا أرى أو أسمـــــع
فلمحـــت الفـــأس ملقـــاة ومـــن ** حولهـــــا أعنـــــاق دوح خـــــضع
دوحـــــة تلحظهـــــا قائلـــــة ** والأســـــى ســـــاورها والفـــــزع
هـــذه قاصـــمة الظهـــر متـــى ** نزلـــت بالـــدوح حـــان المـــصرع
فأجابـــت جـــارة تطفـــئ مـــن ** روعهـــا والـــروع نـــار تلـــذع
لا يروعنـــك الحديـــد الـــصلب فـــى ** أرضـــنا يـــنحط أو يرتفـــع
فهـــو مـــا لم يلـــق مـــن أعوادنـــا ** عـــضداً يـــسعده لا يقطـــع
قلـــت: مرحـــى! حكمـــة لـــو ســـاغها ** خـــائنو أوطـــانهم لارتـــدعوا

/٥//٥ /٥/٥//٥ /٥/٥//٥ ** /٥/// /٥/٥//٥ /٥/٥//٥

فـــاعلاتن فـــاعلاتن فـــاعلا ** فـــاعلاتن فـــاعلاتن فعـــلا

العروض فيها أصابها الحذف وذلك بحذف السبب الخفيف (/٥) من آخـر التفعيلة، أما الضرب فأصابه الحذف – أيضاً – بحذف السبب الخفيف (/٥) من آخر التفعيلة، ثم اجتمع معه حذف الثانى الساكن من التفعيلة ذاتها وهو الخـبن فصارت (فعلاً)؛ فهى محذوفة مخبونة.

ومن الأوزان الموسيقية التى استعملها الشاعر فى شعره الاجتمـاعى وزن الخفيف، وهو أخف البحور الشعرية على الطبع، وأوقعها على السمع، وأطلاها على النفس، أسهل أداء من الوافر – رغم لينه–، وأقرب انـسجاماً، وإذا أجـاد الشاعر نظمه أطرب وأمتع، لقربه من القول المنثور، ولا نظير له فى التصرف بجميع المعانى، وسمى خفيفاً لأنه أخف البحور الشعرية السباعية؛ لتوالى ثلاثـة أسباب خفيفة فيه هى: تن" من "فاعلاتن" "،الثانى" مس" من "مستفع لن" ذى الوتد المفروق، والثالث أن أول وثانى المفروق فيـه لفـظ خفيـف عقـب خفيفـين،

والأسباب أخف من الأوتاد وأجزاؤه ستة: "فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن" مرة فى كل شطر"(١).

ومن قصائد هذا الوزن الموسيقى فى شعر الشاعر قصيدة: "هى ملقى الضدين" وفيها يقول:

كن عذيرى إن كنت يوماً عذولاً	**	لفتى إذ يود موتاً عجولاً
مسه فى الحياة ضير فألقى	**	فى هجاء الحياة قولاً ثقيلاً
رب خطب دها امرءاً وتلقا	**	ه بعزم فكان ذكراً جميلاً
ونعيم وافاه عفواً وما أو	**	لاه شكراً فعاد شراً وبيلا
هى ملقى الضدين حيث ترى فيه	**	ها بغيضاً ترى هناك خليلا
تبعث الشمس فى الهجير لهيباً	**	فتذيع الصبا نسيماً عليلا
٥/٥///٥/ ٥//٥// ٥/٥///	**	٥/٥//٥/ ٥//٥// ٥/٥///
فاعلاتن متفعلن فعلاتن	**	فعلاتن متفعلن فاعلاتن

فيه العروض مخبونة بحذف الثانى الساكن من فاعلاتن لتصير فعلاتن، أما الضرب فيه فصحيح "فاعلاتن"، ومستفعلن فيه مخبونة أيضاً بحذف الثانى الساكن فتصير "متفعلن".

ومن الأوزان الموسيقية التى نظم عليها الشاعر شعره الاجتماعى وزن "الوافر"، وهذا البحر يشترك مع الكامل فى دائرة واحدة هى (المؤتلف) وهو أصل الدائرة (مفاعلتن) ويأتى على صور متعددة، وهو ألين البحور، يشتد إذا شددته، ويرق إذا رققته، وأكثر ما يجود به النظم فى الفخر كمعلقة عمرو بن كلثوم، وفيه تجود المراثى، ومنها كثير فى شعر المتقدمين والمتأخرين، وهذا

(١) انظر: بلاغة الإيقاع فى القصيدة العربية ص (٩٩) د. عبد الباسط سعيد عطايا، شبين الكوم ط سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

البحر بإيقاعه مسرع النغمات متلاحقها مع وقفة قوية سرعان ما يتبعها إسراع وتلاحق، وهذا يتطلب من الشاعر أن يأتى بمعانيه دفعاً، وكأنه يخرجها من مضخة؛ لا فى انثيال كما يفعل صاحب المتقارب ولا فى رشاقة ورقص كما يفعل صاحب الكامل، وأنساقه الإيقاعية وتدفق مقاطعه وانبتاره كل ذلك يرشحه للأداء العاطفى سواء كان ذلك فى الغضب الثائر والحماسة أم فى الرقة الغزلية والحنين"(١).

ومن قصائد الشاعر فى شعره الاجتماعى التى نظمت على وزن الوافر قصيدة بعنوان:"طباب الشرق؛ وفيها يقول:

يـــدالمحتل تـــسعدنا علـــى أن ** نـــروض الفكـــر بالـــسهر الـــدراك

ونـــوقظ للعظـــائم رمـــح عمـــرو ** إذا أزرى بنـــا رمـــح الـــسماك

يـــثير ببغيـــه فـــى كـــل يـــوم ** حفـــائظ مـــضهد وصـــراخ شـــاكى

يقـــول: أجـــير قومـــك مـــن هـــلاك ** ورفـــع لوائـــه عـــين الهـــلاك

يـــوارب إذ يعاهـــدنا مـــسراً ** مـــآرب فـــى دهـــاء واحتبـــاك

عهـــود إن توسمهـــا أريـــب ** رأى الغربـــان تنعـــب فـــى صـــكاك

فمـــا للـــشرق يرســـف فـــى وثـــاق ** وهـــذا الغـــرب يمـــرح فـــى فكـــاك

همـــا شـــطران فـــى بيـــت، وبعـــداً ** لـــشعر غـــير ملتـــئم الحيـــاك

طبـــاب الـــشرق فـــى خطـــرات شـــهم ** وجمـــر حماســـة فـــى القلـــب ذاكـــى

٥/٥// ٥/٥/٥// ٥///٥// ٥/٥// ** ٥/٥// ٥/٥/٥// ٥///٥// ٥/٥//

مفـــاعلتن مفـــاعلتن مفاعـــل ** مفـــاعلتن مفـــاعلتن مفاعـــل

فالعروض فيه مقطوفة بحذف السبب الخفيف من التفعيلة وتسكين الخامس المتحرك واجتماع الحذف مع العصب هو القطف، والضرب فيه كذلك.

(١) انظر: ص٦٢ بلاغة الإيقاع فى القصيدة العربية، مرجع سابق.

ومن الأوزان الموسيقية التى نظم عليها الشاعر هذا اللون من الشعر الاجتماعى بحر "المتقارب" وأجزاؤه هى (فعولن فعولن فعولن فعولن) مرة فى كل شطر، وهو "بحر فيه رنة ونغمة مطربة على شدة مأنوسة، وهو أصلح للعنف منه للرفق وإلى دائرة المتفق ينسب[1]. ومن القصائد التى نظمت على هذا الوزن قصيدة بعنوان: (وما الود إلا عهود تراعى)؛ وفيها يقول:

نشدت أريباً يجس الطباعا ** ويكشف عما يريب القناعا

فمن لى به يوم يبدى أناس ** إخاء وهم يضمرون الخداعا

قضيت ليالى فى غرة ** فلم أعرف الخب إلا سماعا

أباهى بأن عداد الألى ** أصاحب يزداد ساعاً فساعا

أبيت على عهدهم ساهراً ** وما الود إلا عهود تراعى

٥// ٥/٥// ٥/٥// /٥// ** ٥/٥// ٥/٥// ٥/٥// ٥/٥//

فعول فعولن فعولن فعو ** فعولن فعولن فعولن فعولن

فالعروض فيها محذوفة بحذف السبب الخفيف (/٥) من فعولن لتصير (فعو)، والضرب فيها تام على (فعولن).

وعليه فالوزن "يعد أحد مقومات موسيقى الشعر العربى، وأعظم أركانه، وأولى به خصوصية؛ لأنه التوقيع المنتظم الذى نلمسه فى كلمات البيت، من حيث تماثل الحركات، وتكرار أجزاء البيت الواحد أولاً، ثم فى كل أبيات القصيدة ثانياً، وليس يكفى أن ندعوه ثوباً يخلعه الشاعر على معانيه، فتشير بذلك على أنه شيء منفصل عن الشعر؛ بل هو ضرورى فى الشعر"[2].

---

(١) انظر: السابق نفسه ص (٨٦).

(٢) انظر: الشعر وغاياته ووسائطه ص (٧٧)، إبراهيم عبد القادر المازنى، دار الصحوة سنة ١٩٨٦م.

القافية:

تتمثل الموسيقى الشعرية فى الشعر الاجتماعى لدى الشاعر الخضر حسين فى القافية كما تمثلت فى الوزن الموسيقى كما وضحنا سلفاً، وهى لون من موسيقى البيت الشعرى الخارجية، والقافية هى الكلمة الأخيرة فى البيت، يكرر الشاعر رويها – حرفها الأخير – بحركته دون تغيير، وسميت قافية؛ لأنها تقفو أثر كل بيت، أجاز النقاد أن تكون كلمة أو كلمة ونصف كلمة فى القصيدة العمودية، وقد التزم الشاعر القديم القافية الواحدة، وبنى عليها أبياته؛ لأنها تمثل نهاية تدفق النغم فى نهاية كل بيت، وقد تقيد الشاعر القديم بالقافية الواحدة؛ لأنها عنصر ضرورى فى الشعر كالوزن، ولا يكون الكلام شعراً، حتى يكون له وزن وقافية؛ لأن الوزن يمثل الإطار العام لموسيقى القصيدة، وتمثل القافية نوعاً من موسيقى نهاية أبياتها.

وتمثل القافية بناء على ما سبق وقفة موسيقية، عندها تنتهى موجة النغم فى البيت، ثم تعود ببدء بيت آخر، وتتابع القافية بحرف معين يؤدى إلى اتساق فى النغم، بكثرة ألفاظ ذات نهايات متشابهة من ناحية، وارتباط أبيات القصيدة برنين موسيقى موحد من ناحية أخرى"[1].

ومن ثم فالقافية أساس فى الشعر العربى، حتى اشترط النقاد فى الشعر المقفى، أن تنتهى قصيدته بحرف – الروى– واحد حركته واحدة فى كل قوافيها. ولا يكون الشعر مقفى دون تكرار حرف الروى فى آخر الأبيات، ومن ثم فهو من أوثق الروابط بين أبيات القصيدة، وسيظل للقافية الموحدة وقعها على السمع، وتأثيرها فى النفس؛ بحيث لا يستهان بها فى كمال موسيقى الشعر العربى، وبها يتميز عن نظيريه اليونانى واللاتينى. ولا تظهر القافية إلا من

(١) انظر: ص (١٤١)، موسيقى أوزان الشعر العربى، مرجع سابق.

خلال تعدد أبيات القصيدة، وتكوين المقطوعة؛ ومن ثم فهى علاقة وثيقة بين أبيات القصيدة أو المقطوعة. وليست حروف القافية وحركاتها كلها لازمة؛ وإنما اللازم تكرار الحروف الثابتة فى نهاية الأبيات، وأهمية القافية الموحدة ظهر فى أنها تمثل وقفة يتم المعنى بها، وينتهى عندها تدفق النغم. ولدور القافية الفاعل فى موسيقى الشعر، يفترض ألا تكون غريبة ولا عامية، وألا تتكرر قبل سبعة أبيات، وإلا لحقها عيب "الإيطاء"، وألا تتعلق بشىء بعدها حتى لا يتم المعنى إلا ضمن البيت الذى بعدها، وإلا لحقها عيب "التضمين"، وهذا يعنى أن القافية الموحدة وقفة عروضية، يتم المعنى بها، ويتدفق عندها النغم، ومن ثم كان من جمالياتها الموسيقية استقلال كل بيت بنفسه رغم ما يعرف اليوم بالوحدة العضوية، والبنية الداخلية للقصيدة"[1].

وفى شعره الاجتماعى التزم الشاعر الخضر حسين بالقافية فى القصائد والمقطوعات ليوفر لها النغم الموسيقى اللازم لها مع النغم الموسيقى الذى تحقق للقصيدة عن طريق الوزن، واجتماع النغمين يوفر للأبيات والقصائد النغم الموسيقى الذى يميز شعره العربى عن غيره من أنواع الشعر فى اللغات الأخرى، وهذا "أمر تكاد تنفرد به اللغة العربية لطبيعتها الموسيقية وأبنيتها الصوتية وفى الالتزام بها عون للشاعر على تسلسل أفكاره وانسياق صوره وألفاظه إذ إن طبيعة اللغة العربية ومشتقاتها المتشابهة وضمائرها التى تعين على السجع والقافية لا ترتضى نطاقاً سهلاً كهذا النطاق الذى لا يتيح لها أن تبرز جمالها اللفظى، وتتبرج فى حلى من ذخيرتها الغنية فضلاً عن ذلك فإن

(١) انظر: ص (١٤٣) موسيقى أوزان الشعر العربى، مرجع سابق.

القافية التى تتغير بعد كل ثلاثة أبيات أو أربعة تقطع تسلسل الأفكار وتضطر الشاعر إلى أن يحول مجرى خواطره بين حين وآخر تبعاً للقافية المتغيرة(١).

وها هى القافية فى قصائد ومقطوعات الشاعر الخضر حسين فى شعره الاجتماعى إذ كانت القوافى الشعرية من حيث الروى تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- القوافى الذلل؛ وتتحقق بحروف: الباء، والتاء، والدال، والراء، والعين، والميم، والياء، والنون، ويلحق بها: الكاف، والفاء، والجيم، والحاء، والسين.

٢- القوافى النفر؛ وتتحقق بحروف: الصاد، والزاى، والضاد، والهاء الأصلية، والواو.

٣- القوافى الحوش؛ وتتحقق بحروف: الثاء، والخاء، والذال، والشين، والظاء، والغين.

ويلحظ أن إجادة هذه القوافى، تتوقف على قدرة الشاعر وكفاءته فى الأداء"(٢).

فعلى أى القوافى نظم الشاعر الخضر حسين شعره الاجتماعى.

لقد نظم شاعرنا شعره على روى الهمزة فى قصيدة "بعض أمراضنا الاجتماعية"(٣)؛ يقول:

أيعود للشرق الحماسة والإبا ** فتعود عزته ويبتهج العلاء؟

قالوا استقام الشرق وهو يسير فى ** نهج الفلاح وفى عزيمته مضاء

(١) انظر: ص (١٣٥) بلاغة الإيقاع فى القصيدة العربية، مرجع سابق.

(٢) انظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها جـ١: ص٤٤، د. عبدالله الطيب، دون تاريخ.

(٣) انظر: الديوان ص (١١).

ومقطعة "العرب السياسية"[1]؛ وفيها يقول:

عـــذيرى مـــن فتـــى أزرى بقـــومى ** وفـــى الأهـــواء مـــا يلـــد الهـــذاء

يقـــول: العـــرب ظلـــوا فـــى جفـــاء ** ومـــا عرفـــوا الـــسياسة والـــدهاء

ســـلوا التـــاريخ عـــن حكـــم تملـــت ** رعايـــــاه العدالـــــة والرخـــــاء

(١) انظر: الديوان ص (١٤).

ومقطعة "الأثرة بين الأصدقاء"[١]؛ وفيها يقول:

سايرت خلاً فى الهجير فحاد عن ظل وآثرنى ببرد هوائه
فأبيت أن أرد الظلال وصاحبى يلقى وهيج الشمس فى غلوائه

ونظم شعره الاجتماعى على قافية الباء وهى من القوافى الذلل؛ فيقول فى مقطعة بعنوان: "الأخ الصديق"[٢]؛ وفيها يقول:

دعتنى إلى وده فطنة ** يحيد بها إن سألت الجوابا
وما بين برديه إلا أخ ** يؤانسنى إن فقدت الصحابا
أروم عتاباً عليه وكم ** تفرس ما رمته فأصابا
يهب على وجهه خجل ** فيصفو ضميرى وأنسى العتابا

ومقطعة بعنوان: "فى الدين"[٣]؛ وفيها يقول:

أتكسب خمساً وتنفق ستاً ** ضللت لعمرى سبيل الأريب
هو الدين إن جئته فارتقب ** نهار الذليل وليل الكئيب
وطعم الهوان –وما ذقته- ** أمر من الموت قبل المشيب

ونظم شاعرنا على قافية التاء وهى من القوافى الذلل؛ فيقول فى مقطعة بعنوان: "رقة الطبع تزيد المودة"[٤]:

جفا الصديق فناجيت الفؤاد بأن ** يبيت فى جفوة تلقاء جفوته
أبى وقال أصون العهد متئداً ** فرب ود صفا من بعد غبرته
عاد الصديق فأصفى وده فإذا ** حديث نجواى منسوخ برمته
إن تلق طبعاً رقيقاً فاغرسن به ** مودة يسقيها من ماء رقته

---

(١) انظر: الديوان ص (١٦).
(٢) انظر الديوان ص (٣٠).
(٣) انظر الديوان ص (٣٠).
(٤) انظر الديوان ص (٤٣).

ونظم شاعرنا شعره الاجتماعى على قافية الجيم وهى من القوافى الــذلل، قصيدة بعنوان: "زهرة الدنيا أخلائى"[١]؛ وفيها يقول:

يــــوم بـــين لم أذق مـــن قبلـــه ** لوعـــة كالنـــار حـــراً وهياجـــا

ودعـوا، والـصبح يحـدو فـى الـدجى ** حـــاملاً مـــن بـــين جنبيـــه ســـراجا

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الحاء، وهى من القوافى الــذلل؛ مقطعة بعنوان: "عتاب على مزاح"[٢]؛ وفيها يقول:

بنـــى ألم ترشـــف أفـــاويق حكمـــة ** كمـــا رشـــفت قطـــر النـــدى زهـــرة الـــدوح

ومثلـــك لا تلويـــه داعيـــة الهـــوى ** عـــن الـــسيرة الغـــراء والخلـــق الـــسمح

أعيـــذك بالفرقـــان أن تحكـــى امـــرءاً ** يغـــض مـــن الـــدين الحنيفـــى بـــالمزح

وتـــصغى إلى نجـــوى الـــذى يركـــب الخنـــا ** ويأخـــذ أهـــل الـــشرع بـــالطعن والقـــدح

بلونـــا الهـــدى بعـــد الهـــوى فـــإذا الهـــوى ** دجنـــة ليـــل والهـــدى فلـــق الـــصبح

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الدال، وهى من القــوافى الــذلل قصيدة عنوانها: "بكاء على مجد ضائع"[٣]؛ وفيها يقول:

بـــــين الجـــــوانح همـــــة ** تـــــسمو إلى أمـــــد بعيـــــد

نهـــضت كمـــا تبغـــى العـــلا ** والعـــزم كالـــسيف الفريـــد

أدمـــــى فـــــؤادى أن أرى الـــــ ** أقـــلام ترســـف فـــى قيـــود

وأرى سياســـــــة أمتـــــــى ** فـــى قبـــضة الخـــصم العنيـــد

وقصيدة أخرى بعنوان: "المعارف والصنائع"[٤]؛ وفيها يقول:

أيعاتـــب الـــزمن الـــذى لا يـــسعد ** وبنـــوه فـــى مهـــد البطالـــة هجـــد

---

(١) انظر الديوان ص (٤٥).

(٢) انظر الديوان ص (٤٩).

(٣) انظر الديوان ص (٦١).

(٤) انظر الديوان ص (٧٣).

مهلاً فما هو بالملوم ومن رمى ** سهم الملامة نحوه فمفند

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الذال، وهى من القوافى الحوش، مقطعة بعنوان: "صيانة النفس عن الملق"(١)؛ وفيها يقول:

قالوا: ركبت بالانقباض مطية ** أقصتك عن عيش الثرى لماذا؟
قلت: انقباضى أن أصون النفس عن ** ملق يعاقره الطغام لواذا
إن ينتجع فئة به وبلاً فخذ ** إخذ الكرام ولو نجعت رذاذا
ومن السلامة أن أصون الوجه عن ** ملقى الذى اتخذ النفاق ملاذا

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الشين، وهى من القوافى الحوش، مقطعة بعنوان: "لحا الله الغواية"(٢)؛ وفيه يقول:

رأوا فى كفه ذهباً فطاشوا ** إليه وطال بينهم الهراش
كأن التبر نار فى ظلام ** وهم من حول صفرته فراش
يدار الغى بين يديه صرفاً ** فتغمره البشاشة والهشاش
وإن مر الرشاد به تثنت ** وكشت تحت بردته رقاش
لحا الله الغواية من طريق ** ينال به طعام أو رياش

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الضاد، وهى من القوافى النفر، مقطعة بعنوان: "المحبة الصادقة"(٣)؛ وفيها يقول:

نبئت أنك موجع ** فارتاع قلبى وانتفض
ما ضر لو كنت المريض ** ض وزال عن خلى المرض
وجع القلوب أشد من ** وجع الجسوم إذا عرض
لا خل إلا من يبيـ ** ـت إذا مرضت على مضض

(١) انظر الديوان ص (٧٦).
(٢) انظر الديوان ص (٩٥).
(٣) انظر الديوان ص (٩٨).

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية العين، وهى من القوافى الـذلل، قصيدة بعنوان: "وما الود إلا عهود تراعى"[١]؛ وفيها يقول:

نـشدت أريبـاً يجـس الطباعـا ** ويكـشف – عمـا يريـب – القناعـا
فمـن لى بـه يـوم يبـدى أنـاس ** إخـاء وهـم يـضمرون الخـداعا
قـضيت ليـالى فـى غـرة ** فلـم أعـرف الخـب إلا سماعـا

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الغين، وهى من القوافى الحوش قصيدة بعنوان: "كرم الأصل"[٢]؛ وفيها يقول:

تقلـدت فـى صـدر الحيـاة عزيمـة ** وبـاكرت تجنـى العلـم والعـيش رابـغ
فكنـت تـرى الأيـام غـراً سواسـياً ** كأسـنان مـشط لـيس فيهـا زوائـغ
وكنـت تخـال النـاس طـراً ملائكـاً ** لكـل امـرئ بـرد مـن الطهـر سـابغ

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الفاء، وهى من القوافى الـذلل، مقطعة بعنوان: "الصداقة وحرية الرأى"[٣]؛ وفيها يقول:

أيـصفو لى مـن الأصـحاب خـل ** لـه أدب أرق مـن الـسلاف
أهـيم بـه الحيـاة ومـا هيـامى ** بغـير الألمعيـة والعفـاف
ينـاقش أو يخـالف بعـض رأيـى ** فـأبهج بالنقـاش وبـالخلاف
وأوثـر أن أكـون محـب خـير ** فحـر الـرأى أمثـل مـن تـصافى

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية القاف، وهذه مقطعـة بعنـوان: "عدو الملق"[٤]؛ وفيها يقول:

جـيرة كـاتمتهم ودى ومـا ** كـتم ودى قبلـهم مـن خلقـى

---

(١) انظر الديوان ص (١٠٨).
(٢) انظر الديوان ص (١١٠).
(٣) انظر الديوان ص (١١٣).
(٤) انظر الديوان ص (١٢٥).

إنمـــا بـــاح بـــه جفـــن جـــرى ** ســـاعة الـــبين بـــدمع غـــدق
مـــن عـــذيرى إن أنـــا ودعـــتهم ** بمـــآق كالجهـــام المملـــق
وانثنـــوا بعـــد النـــوى يغـــريهم ** باللقـــا أنـــى عـــدو الملـــق

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الكاف، وهى من القوافى الـذلل، قصيدة بعنوان: "طباب الشرق[1]"؛ وفيها يقول:

يـــد المحتـــل تـــسعدنا علـــى أن ** نـــروض الفكـــر بالـــسهر الـــدراك
وتـــوقظ للعظـــائم رمـــح عمـــرو ** إذا أزرى بنـــا رمـــح الـــسماك
يـــثير ببغيـــه فـــى كـــل يـــوم ** حفـــائظ مـــضهد وصـــراخ شـــاكى
يقـــول: أجـــير قومـــك مـــن هـــلاك ** ودفـــع لوائـــه عـــين الهـــلاك

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية اللام، وهى من القوافى الـذلل، قصيدة بعنوان: "هى ملقى الضدين"[2]؛ وفيها يقول:

كـــن عـــذيرى إن كنـــت يومـــاً عـــذولاً ** لفتـــى إذ يـــود موتـــاً عجـــولاً
مـــسه فـــى الحيـــاة ضـــير فـــألقى ** فـــى هجـــاء الحيـــاة قـــولاً ثقـــيلاً
رب خطـــب دهـــا امـــرءاً وتلقـــا ** ه بعـــزم فكـــان ذكـــراً نبـــيلاً

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية النون، وهى من القوافى الـذلل، قصيدة بعنوان: "رضيت عن اغترابى"[3]؛ وفيها يقول:

رضـــيت عـــن اغترابـــى إذ لحـــانى ** فتـــى لا ينظـــر الـــدنيا بعينـــى
يقـــول: تقـــيم فـــى مـــصر وحيـــداً ** وفقـــد الأنـــس إحـــدى المـــوتتين
ألا تحـــدو المطيـــة نحـــو أرض ** تعيـــد إليـــك أنـــس الأســـرتين
وعيـــشاً ناعمـــاً يـــدع البقايـــا ** مـــن الأعمـــار بيـــضاً كـــاللجين

(١) انظر الديوان ص (١٣٢).
(٢) انظر الديوان ص (١٤٨).
(٣) انظر الديوان ص (١٧٢).

وقـــوم أمحـــضوك النـــصح أمـــسوا ** كواكـــب فـــى سمـــاء المغـــربين
فقلـــت : أيحلـــو لى إيـــاب ** وتلـــك الأرض طافحـــة بغـــين

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الهاء، وهى من القـوافى النفـر قصيدة بعنوان: "إلى الحاكم المسلم"[1]؛ وفيها يقول:

رزقـت جاهـاً فخـل العـزم يحميـه ** والعـز حـصن وتقـوى الله تبنيـه
قلـدت حكمـاً ومنهـاج الـسياسة أن ** ترعـى الـشريعة فيمـا أنـت قاضـيه
أنـت الهمـام الـذى يقـضى الليـالى فـى ** صـحو مـن الحـزم لا فـى سـكرة التيـه
ولـست أنـت كزيـد إن يـصب هـدفاً ** أو لا يـصب، قـل لاحيـه ومطريـه
بـل أنـت كالبـدر يـدرى النـاس قاطبـة ** لـو حـاد طرفـة عـين عـن معاليـه

ونظم الشاعر شعره الاجتماعى على قافية الياء، وهى من القوافى الـذلل؛ قصيدة بعنوان: "لوعة الفراق"[2]؛ وفيها يقول:

قـف بنـا يـا حـادى الركـب مليـا ** فالـصبا أهـدت لنـا أطيـب ريـا
قـف مليـاً ذا هـو الربـع الـذى ** كنـت قـد أودعتـه قلبـاً شـجياً
لـست أدرى أرعـوا بعـد النـوى ** عهـدنا أم أحـدثوا فـى العهدشـيا
قـف عـسى أن أجنـى الأنـس الـذى ** كنـت أجنيـه غـدواً وعـشياً
حـسبنا فـى العـيش أنـا لا نـرى ** بيننـا قلبـاً مـن الـود خليـاً

وباستقراء وتتبع كل القوافى التى نظم الـشاعر الخـضر حـسين شـعره الاجتماعى عليها وجدنا تناسباً واضحاً بين هذا الغرض والقـوافى التـى نظـم عليها الشعر وثبت لنا بهذا الدليل تمكن الشاعر من ملكته الـشعرية ودراسـته اللغوية التى ساعدته على ذلك، ومما يدل على تمكن الشاعر من فنـه اسـتخدام

(١) انظر الديوان ص (١٨٣).
(٢) انظر الديوان ص (١٨٩).

القافية المناسبة والمتمكنة فى مكانها من البيت الشعرى لأن القافية هى خاتمة البيت، ونقطة الارتكاز فى الأسلوب، فمن الضرورى أن تكون متمكنة فى موضعها دون استكراه، وأوجب العروضيون أن تكون كالشىء المنتظر، يتشوفها البيت ويتطلع إليها؛ أى يكون فيه ما يدل عليها، وهذا ما سموه التصدير حيناً، ورد العجز على الصدر حيناً آخر(١)، ويتضح هذا فى قول الشاعر:

أريد أخاً كالماء يجرى على الصفا ** نقياً فيصفو لى على القرب والبعد

فالقافية هى قوله: "والبعد" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت، لأنه تقدم ما يدل عليها ويمهد لها هو قوله: "على القرب".

وفى قوله:

وأرسلت لحظ الفكر فى القوم ناقدا ** وأوصيته ألا يبالغ فى النقد

فالقافية هى قوله: "فى النقد" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت، لأنه تقدم ما يدل عليها ويمهد لها هو قوله: "ناقداً".

وفى قوله:

خلوا عداتى يملئون بخيلهم ** وبرجلهم أكم الثرى ووهاده

فالقافية هى قوله: "ووهاده" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت، لأنها تقدم ما مكن لها هو قوله: "أكم الثرى" وهى تلال الوادى الذى يقابل الوهاد وهى السهول.

أينعم لى بال وأنت بعيد ** وأسلو بطيف والمنام شريد

فالقافية هى قوله: "شريد" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت؛ لأنه تقدمها ما مكن لها هو قوله: "طيف، والمنام".

وفى قوله:

---

(١) انظر: موسيقى أوزان الشعر العربى ص (١٥٤)، مرجع سابق.

نبئـــــت أنـــــك موجـــــع ** فارتـــــاع قلبـــــى وانـــــتفض

فالقافية هى قوله: "وانتفض" جاءت متمكنة فى مكانها مـن البيـت، لأنـه تقدمها ما مكن لها فى البيت هو قوله: "فارتاع".

وفى قوله:

عجـــت يومـــاً بريـــاض أجتنـــى ** عـــــبراً ممـــــا أرى أو أسمـــــع

فالقافية هى قوله: "أسمع" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت؛ لأنه تقـدمها ما مكن لها هو قوله: "أرى".

وفى قوله:

لا يرتجـى العـز شـعب ظـل فـى وسـن ** مـــن البطالـــة لا ســـعياً ولا أمـــلاً

فالقافية هى قوله: "أملاً" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت؛ لأنه سبقها مـا مكن لها هو قوله: "سعياً.

وفى قوله:

رزقـت جاهـاً فخـل العـز يحميـه ** والعـــز حـــصن وتقـــوى الله تبنيـــه

فالقافية هى قوله: "تبنيه" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت؛ لأنه تقدمها ما مكن لها هو قوله: "حصن".

وفى قوله:

قـــف بنـــا ياحـــادى الركـــب مليـــاً ** فالـــصبا أهـــدت لنـــا أطيـــب ريـــا

فالقافية هى قوله: "رياً" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت؛ لأنه سبقها مـا مكن لها هو قوله: "فالصبا".

وفى قوله:

ســايرت خـلاً فـى الهجـير فحـاد عـن ** ظـــل وآثرنـــى بـــبرد هوائـــه

فالقافية هى قوله: "هوائه" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت؛ لأنه تقدمها ما مكن لها هو قوله: "ظل، ببرد".

وفى قوله:

أما كفاك ظباء أو مها بربا ** حتى تقنصت آساد الشرى بزبا

فالقافية هى قوله: "بزبا" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت؛ لأنه سبقها ما مكن لها هو قوله: "تقنصت، أساد الشرى".

وفى قوله:

دعتنى إلى وده فطنة ** يجيد بها إن سألت الجوابا

فالقافية هى قوله: "الجوابا" جاءت متمكنة فى مكانها من البيت؛ لأنه سبقها ما مكن لها هو قوله: "إن سألت".

التصريع:

وقد استخدم الشاعر التصريع فى بعض قصائده وهو لون موسيقى جيد فى الشعر العربى ومعناه مجانسة شطرى البيت الواحد، وهذا يعنى جعل العروض مشابهاً للضرب وزناً وقافية وإعراباً، وذلك مستحق فى افتتاح قصائده؛ أى فى البيت الأول باتحاد القافية فى نهاية كل شطر فيه؛ يبرز الموسيقى فى البيت الأول، ولا يظهر ذلك فى الأبيات الأخرى التى خلت من التصريع وقيمة التصريع أنه بمثابة المفتاح الموسيقى للحن مختلف الأبيات فى القصيدة وزناً ورويا وإعراباً، بجانب أنه يشير إلى قافيتها قبل تمام البيت الأول، ومن ثم يحدث التوازن النغمى، والإيقاع الموسيقى المتكافئ"[1].

وأمثلة ذلك من الشعر الاجتماعى لدى الشاعر محمد الخضر حسين قوله:

أيعود للشرق الحماسة والإبا ** فتعود عزته ويبتهج العلاء؟

(١) انظر: ص (١٥٤) موسيقى أوزان الشعر العربى، مرجع سابق.

٥/٥//٥/// ٥//٥/// ٥//٥/// ** ٥/٥//٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥///

قـالوا اسـتقام الـشرق وهـو يـسير فـى ** نهج الفلاح وفى عزيمته مضاء

٥/٥//٥/// ٥//٥/// ٥//٥/٥/ ** ٥//٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥/٥/

فالتصريع واضح فى البيت الأول فى قوله: "والإبـاء" وقولـه: "العـلاء"، فالعروض ناسبت الضرب وزناً ورويا وإعراباً بزيادة فيها لاتوجد فى عـروض البيت الثانى وسائر أبيات القصيدة، ودلت على قافية البيت ورويها، وكان البيت الأول مفتاح الموسيقى الشعرية فى البيت والأبيات التى تليه، ولم يظهر هذا فى البيت الثانى ولا فى غيره.

ومثال التصريع فى شعر الشاعر قوله:

أرق وهـل يبغـى القـريح سـوى الـسبات ** والقلـب خفـاق كقادمـة القطـاة

٥/٥//٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥/٥/ ٥/٥//٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥/٥/

لا ترهقينـى يـا حيـاة ضـنا أمـاً يكفـى خطـوب كالأسـنة فـى اللـهاة

٥//٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥/٥/ ٥/٥//٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥/٥/

فالتصريع واضح فى البيت الأول فى قوله: "الـسبات" وقولـه: "القطـاة" فالعروض ناسبت الضرب وزناً ورويا وإعراباً، بزيادة فيها لاتوجد فـى البيـت الثانى وسائر أبيات القصيدة، ودلت على قافية البيت ورويها، وكان البيت الأول بما فيه من تصريع مفتاح الموسيقى الشعرية فى البيت والأبيات بعده.

ولم يتحقق ذلك فى البيت الثانى لخلو العروض من الزيادة كالتى جاءت فى البيت الأول والتى ساوت وناسبت الضرب وزناً ورويا وإعراباً.

ولا يتوقف تناسب العروض للضرب ليتم التصريح فى البيت الأول علـى الزيادة؛ فقد يكون التناسب بطريق النقص؛ كما فى قول الشاعر الخضر حسين:

سـحب الفتـى البـدوى ذيـل مـراح ** يزهـى بـسرح فـى فـلا ومـراح

٥/٥/// ٥//٥/٥/ ٥//٥/٥/ ** ٥/٥/// ٥//٥/// ٥//٥///

فالعروض فى البيت قوله: "ل مراح" متفاعل أصابها القطع هو حذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ما قبله؛ ففى ذلك نقص لكى تناسب الضرب وهو قوله: "ومراح" متفاعل الذى أصابه القطع بحذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ما قبله. ولم يتحقق ذلك فى البيت الثانى من القصيدة وهو قوله:

ألف البطولة والسماح فماله شغف بغير بطولة وسماح

٥/٥/// ٥//٥/// ٥//٥/// ٥/ //٥/// ٥//٥///

فالعروض قوله: "ح فماله" متفاعلن وهى تامة، والضرب قوله: "وسماح" متفاعل، وكذلك بقية أبيات القصيدة؛ فالنقص لون من ألوان التصريع لتناسب العروض ضربها فى البيت الأول دون سائر الأبيات.

ومثال التصريع عن طريق النقص قول الشاعر:

حجا فى غمار المعضلات سبوح ** وعزم إلى أسنى المعالى طموح

٥/٥// ٥/٥/٥// /٥// ٥/٥// ** ٥/٥// ٥/٥/٥// ٥/٥// ٥/٥//

العروض فى البيت قوله: "سبوح" مفاعى عروض الطويل مفاعيلن وهى هنا أصابها الحذف لتناسب عروض الطويل وهى محذوفة أيضاً بحذف السبب الخفيف من آخرها، وذلك ليتم للشاعر تصريع بيته فتتم له موسيقاه، وفى البيت الثانى نجده يقول:

جناحان لا ترقى بغيرهما العلا ** ومن دون مرماها مهامه فيح

٥/٥// ٥/٥/٥// /٥// ٥//٥/// ** ٥/٥// ٥/٥/٥// /٥// ٥/٥//

فعولن مفاعيلن فعول مفاعلن ** فعولن مفاعيلن فعول مفاعى

العروض فى هذا البيت قوله: "هما العلا" مفاعلن أصابها القبض حذف الخامس الساكن ولم يصبها الحذف كعروض البيت الأول، والضرب هو، قوله:

"ـــه فيح" مفاعى محذوف السبب الخفيف وهذه هى إحدى حالات الطويل التـــام أن يأتى محذوف الضرب. ودلت العروض على قافية البيت.

ومن مظاهر الموسيقى الخارجية فى البيت الشعرى "التنوين" فى الألفـــاظ؛ وللتنوين تطريب له تأثيره على السمع ووقعه علـــى الأذن، والتنـــوين يحـــدث وقفات خفيفة، لها رجعها بين فواصل العبارات، ولها إيقاعها فى نهاية المقاطع؛ مما يحدث التوازن النغمى، والإيقاع الموسيقى فى الأداء والتعبير"(١).

وقد استخدم الشاعر الخضر حسين فى شعره الاجتماعى التنوين ليوفر لبيته الشعرى موسيقاه من هذا الطريق ليتعـــاون مـــع الـــوزن والقافيـــة فـــى الأداء الموسيقى ومن أمثلة هذا قوله:

كـــن البـــدور حـــصانة ووســـامة ** والحـــسن يبهـــر إذ يخالطـــه الحيـــاء

فالتنوين فى قوله: "حصانةً"، و"ووسامةً" أحدث رنة موسيقية جميلة. وفى قوله:

أقـــصى الإلـــه ملاهيـــاً ومراقـــصاً ** نـــصبت كأشـــراك يـــصاد بهـــا النـــساء

فالتنوين فى قوله: "ملاهياً"، و"مراقصاً".

وقد وفر التنوين فيهما الموسيقى اللازمة كمظهر للتطريب وله أثـــر فـــى السمع تطرب له الأذن.

وفى قوله:

ســـايرت خـــلاً فـــى الهجـــير فحـــاد عـــن ** ظـــــل وآثرنـــــى بـــــبرد هوائـــــه

ولـــو احتـــسى المـــاء الزعـــاق حـــسوته ** عبـــاً ولـــو جـــاء الفـــرات بمائـــه

فالتنوين فى قوله: "خلاً"، و"ظل"، فى البيت الأول، وقوله: "عباً" فى البيـــت الثانى، وقد وفر التنوين فى هذه الألفاظ التطريب الموسيقى الذى تلذ له الأذن.

وفى قوله:

---

(١) انظر: ص (٢٣٢)، موسيقى أوزان الشعر العربى، مرجع سابق.

أمـــا كفـــاك ظبـــاءً أو مهـــاً بربـــا ** حتـــى تقنـــصت آســـاد الـــشرى بزبـــا؟

ومـــا قنعـــت بمـــا يطفـــو علـــى لجـــج ** ففـــصت تلقـــط درّاً تحتهـــا رســـباً

ألـــست أبـــدعت قـــولاً تـــستبين بـــه ** مـــا فـــى الـــضمير فكـــان الثغـــر والـــشنبا

أرســـلته زمنـــاً فلـــم أقمـــت لـــه ** وزنـــاً؟ أكـــان حـــصى ثـــم انثنـــى ذهبـــا

فالتنوين فى قوله: "ظباء"، و"مهـا"، و"لجـج"، و"درّاً"، و"قـولاً"، "زمنـاً"، و"وزناً"، و"حصى".

وإذا استقل الشطر الأول فى البيت الأول بالتنوين، فقد اشترك الشطران فيه فى البيت الثانى، وإذا استقل الشطر الأول فى البيت الثالث بالتنوين فقد اشـترك الشطران فيه فى البيت الرابع مما أحدث وقفات موسيقية تلذ لها الأذن ويطمـئن لها قلب المتلقى.

وهكذا الحال فى الأبيات الآتية:

حكـى الـصدى صيحةً رجـت فجئـت بمـا ** يحـاكى القـصائد أنـى شـئت والخطبـا

مـا ضـاقت الأرض يومـاً عـن خطـاك لمـا ** صـعدت فـى الجـو تحكـى الطـير والـسحبا

خطبـت دهـراً ولم تـسمع سـوى مـلأ ** واليـوم تـسمع عجـم الأرض والعربـا

أرسـلت فـى كـل واد رائـداً فـدرى ** بحكمـة البحـث كنـه الأمـر والـسببا

القصر:

ومن الظواهر الأسلوبية الشائعة فى الشعر الاجتماعى لدى الشاعر الخضر حسين: القصر ويكون عن طريق النفى والاستثناء، أو عن طريـق العطـف أو غيرها من طرق القصر المعروفة لدى الأدباء وعلماء البلاغة، وأسلوب القصر يؤكد المعنى ويقرره مع التوضيح والبيان.

ولا شك أن للأساليب مدلولات خاصة، وإيحاءات معينـة، يهـدف إليهـا الشاعر، تعاونه على ذلك الألفاظ التى يختارها، والجمل التـى يـصطفيها، وأن

للأساليب أثراً فى البناء الشعرى، ودوراً فى تأدية المعنى إلى القارئ، وتوصيله إلى المتلقى على نحو يواكب عاطفة الشاعر وشعوره"(١).

ومن شواهد القصر فى الشعر الاجتماعى لدى الشاعر الخضر حسين، قوله فى قصيدة "الأخ الصديق":

دعتنـــــــى إلى وده فطنـــــــة ** يجيـــد بهـــا إن ســـألت الجوابـــا

ومـــا بـــين بـــرديـــه إلا أخ ** يؤانـــسنى إن فقـــدت الـــصحابا

فهو يوضح ويبين ويؤكد للمتلقى أن صديقه الذى عقد الود بينهما هو الصديق الحق الذى صار بمنزلة أخيه الشقيق الذى يؤانسه إذا فقد كل صديق. أتى هذا التوضيح والتأكيد عن طريق القصر وهو النفى والاستثناء فى قوله: "وما بين برديه إلا أخ"، فقد قصر البينية فى ملابسه على الأخ الحقيقى.

ويقول فى قصيدة: "ما أضيع البرهان عند المعاند":

ومـا الخلـف فـى الآراء بينكمـا سـوى ** دليـــل علـــى أن الـــوداد صـــريح

ومـــا هـــو كـــالخلف الـــذى يـــستثيره ** عنـــاد ورأى بالـــصواب لقـــوح

فقد أعلن أن الاختلاف فى الرأى المبنى على الود يدل على أن الحب قد عمر القلوب؛ فالاختلاف يأتى بنتائج طيبة، وليس كالخلف الذى يبنى على الجدال والعناد؛ كل هذا عن طريق القصر الذى استخدم فيه الشاعر أسلوب النفى والاستثناء، فى: "وما الخلف.. سوى دليل"..

ونجده فى قوله:

مـــا صـــافحت راحاتنـــا دوحـــاً ذوى ** إلا وأينـــع منـــه غـــصن أغيـــد

فقد وضح وأكد على أن كل دوح ذبل وذوى ثم صافحته أيديهم أينع منه غصن أغيد؛ غصن أخضر دبت فيه النضارة والإشراق بمعنى أنهم يهبون

(١) انظر: ص (٩٠) دراسات فى النص الأدبى، مرجع سابق.

الحياة لكل أرض مشوا عليها؛ كل هذا عن طريق القصر الذى استخدم فيه الشاعر أسلوب النفى والاستثناء.

وفى قوله:

لا خـــــل إلا مـــــن يبيـــــــ ** ـــــت إذا مرضـــت علـــى مـــضض

أكد كلامه على أن الصديق الحق والأخ الحقيقى هو الذى يتحمل كل ما يحل بصديقه من ألم وحزن عن طريق المشاركة؛ وذلك كله عن طريق القصر الذى استخدم فيه أسلوب النفى والاستثناء.

الاستفهام:

ومن الأساليب المهمة التى استخدمها الشاعر الخضر حسين فى شعره الاجتماعى أسلوب "الاستفهام"؛ فالاستفهام قد يحتاج إليه الشاعر ليبرز من خلاله عاطفته التى يريد أن يبرزها، كأن يهدف به الإنكار، أو التقرير، أو التعجب، أو الحيرة والتردد"(١).

وقد استخدم الشاعر محمد الخضر حسين الاستفهام فى شعره الاجتماعى فى قصيدة بعنوان: "بعض أمراضنا الاجتماعية" ومثاله فيها قوله:

أيعـــود للـــشرق الحماســـة والإبـــاء ** فتعـــود عزتـــه ويبـــتهج العـــلاء

فهذا الأسلوب أسلوب إنشائى استفهامى، والاستفهام هنا لا يريد جواباً؛ بل استعمله الشاعر ليفصح عن أمنيته فى عودة الحماسة والإباء إلى نفوس أبناء الشرق ليهبوا فى وحدة ضد هذا المستعمر الذى أذلهم ونهب خيراتهم، لتعود لهم حريتهم وكرامتهم، وهو مع هذه الأمنية يحض ويحث أبناء وطنه على القيام بهذا الدور وهذا الواجب الحتمى، وألا ينتظروا من يأتى من خارج وطنهم ليدافع عن حريتهم وكرامتهم فى وطنهم، فخرج الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء

(١) انظر: ص (٥٨)، دراسات فى النص الأدبى، مرجع سابق.

بالاستفهام، وخرج أسلوب الاستفهام إلى الحث والحض على القيام بالواجب نحو حرية الوطن وكرامته، ولو قال مثلاً: سيعود للوطن العربى حريته وحماسته وإباؤه وعزته مستعملاً أسلوباً خبرياً، ما أتى بالفائدة المرجوة التى وصل إليها عن طريق الاستفهام المجازى الذى كان للأداة دور مهم فى إيقاظ عقل المتلقى وتنبيه أذن السامع لما بعد الأداة من معان وأمور مهمة.

ومثاله قوله فى ذات القصيدة:

فتياتنا إن رمت بث شكايتى ** من خطبهن يسابق الشكوى بكاء

ما بالهن اليوم يرضين الهوى ** ما شاء لا راع يهاب ولا قضاء

استعمل فى البيت الثانى أسلوب الإنشاء عن طريق الاستفهام، وخرج الاستفهام عن حقيقته إلى معنى آخر هو إنكار ما صارت إليه الفتيات فى عصرنا هذا؛ فهن يجرين وراء كل غريب ليرضين شهواتهن ونزواتهن دون مراعاة لأصول ولا لأخلاق شرقية ولا آداب دينية؛ فهو يستنكر كل ما هن فيه؛ لأنه خرج عن عادات وتقاليد وأخلاق مجتمعهن الشرقى، ولو قال مستعملاً أسلوباً خبرياً: الفتيات يخالفن عادات المجتمع الشرقى ويقلدن الغرب فى تقاليده، ما وصل إلىما أراده عن طريق الاستفهام الإنكارى لما فى الأداة من إيقاظ عقل المتلقى وأذنه لما سيأتى بعد الأداة من معان وأمور مهمة واجبة الأداء.

ومثاله قوله فى قصيد: "عواطف الصداقة":

أينعم لى بال وأنت بعيد ** وأسلو بطيف والمنام شريد

استعمل هنا أسلوباً إنشائياً عن طريق الاستفهام الذى خرج عن حقيقته إلى معنى آخر هو التعجب؛ أى كيف ينعم باله وصاحبه بعيد عنه، وكيف يرى طيفه، ونومه لا يخالط عينيه؛ فالحرمان واضح جلى، ولو استعمل أسلوباً خبرياً فى هذا الموضع فقال: لا ينعم بالى وصديقى بعيد، ولا تتم سلواى بطيفه لأننى

لا أنام، ما تم له ما أراده عن طريق الاستفهام المجازى لما للأداة من دور فى إيقاظ عقل المتلقى وأذنه لما يأتى بعدها من أمور مهمة يجب الأخذ بها.

ومثاله فى ذات القصيدة قوله:

ألم ترم فى الإصلاح عن قوس ناقد ** درى كيف يرعى طارف وتليد

استعمل أسلوباً إنشائياً – أيضاً– عن طريق الاستفهام الذى خرج عن حقيقته إلى غرض آخر هو التقرير؛ لأن هذا أمر واقع من صديقه حقاً، فكم نادى بالإصلاح المجتمعى، وكم حث بنى وطنه على ذلك، ولو استعمل أسلوب الخبر مثلاً فقال: أنت ناديت بالإصلاح كثيراً؛ ما تم له ما أراد عن طريق أسلوب الاستفهام؛ لما للأداة من دور فى تنبيه عقل المتلقى لما بعدها من أمور مهمة.

ومثاله قوله فى قصيدة: "المعارف والصنائع):

أيعاتب الزمن الذى لا يسعد ** وبنوه فى مهد البطالة هجد

استعمل أسلوب الإنشاء عن طريق الاستفهام المجازى هو الاستبعاد؛ أى لا تنفع المعاتبة ولا ينفع اللوم فى الزمن الذى لا يسعد أهله الذين يرسفون فى قيود البطالة لا عمل لهم ولا نفع، ولو استعمل الأسلوب الخبرى مثلاً فقال: لا يعاتب زمن فشت فيه البطالة. فلا عمل للناس ولا نفع. ما وصل إلى ما أراده كما فى أسلوب الاستفهام المجازى لما للأداة من دور مهم فى إيقاظ عقل المتلقى وأذنه ولفهم ما يأتى بعدها من أمور مهمة.

الأمر:

ومن الأساليب الإنشائية التى استعملها الشاعر الخضر حسين فى شعره الاجتماعى، أسلوب الأمر، وهذا الأسلوب يستعمله الشاعر للحض والدعوة إلى فعل ما به تتحقق الآمال والأمجاد، أو يعود الحب والوصال مرة أخرى، أو

ترجع الوحدة إلى القلوب بعد أن تقطعت بسبب أقوى من إرادة النـــاس، ومـــن أمثلة أسلوب الأمر فى شعر الشاعر قولـــه فـــى مقطعـــة بعنـــوان "العـــرب والسياسة":

ســـلوا التـــاريخ عـــن حكـــم تملـــت ** رعايـــــاه العدالـــــة والرخـــــاء

عـــزوف الـــنفس عـــن تـــرف ذكـــور ** لعقبـــى مـــن أجـــاد ومـــن أســـاء

طلب من هذا المدعى بأن العرب لا تعرف السياسة؛ فلا يقيمون عـــدلاً ولا يبنون نظاماً، آمراً إياه أن يسأل هو ومن معه التاريخ؛ حيث سجل ســـيرة هـــذا العظيم الخليفة العادل عمر الفاروق الذى ســـعدت رعيتـــه بالعـــدل والمـــساواة فسعدوا بالرخاء والهناء؛ فقد كان عف اليدين زاهداً ورعاً مراقباً أحوال النـــاس فى كل مكان من أجاد منهم فى عمله ومن أساء وقد شهد له أعداؤه بذلك.

ومثاله قوله فى مقطعة عنوانها "لم أكن بمداج":

يتهامـــــسون بلهجـــــة لم أدرهـــــا ** فإخـــالهم همـــسوا بعـــسر علاجـــى

فلتـــذكرينى – إن قـــضيت – بـــأننى ** أرعـــى العـــشير ولم أكـــن بمـــداجى

استعمل هنا – أيضاً– أسلوب الأمر وهـــو أســـلوب إنـــشائى فـــى قولـــه: "فلتذكرينى" المضارع المقترن بلام الأمر وهذه الصيغة تطلب من المـــأمورة أن تذكر من طلب منها ذلك؛ حيث كان مريضاً بأنه كـــان دائمـــاً يرعـــى حقـــوق الآخرين ولم يكن أبداً يوماً منافقاً أو مخادعاً؛ فقد أدى الـــشاعر معنـــاه المـــراد بأسلوب سهل ميسور وهو أسلوب الأمر أداء جميلاً.

ومثال هذا الأسلوب قول الشاعر فى قصيدة "الرجاء أساس كل نجاح":

ركـــب الهـــوى طلقـــاً، وأصـــبح ســـيره ** هـــــدفاً لرميـــــة مـــــزدر أو لاحـــــى

فـــسلوا بـــه الخمـــر العجـــوز فإنهـــا ** أدرى بـــــشأن مقبـــــل الأقـــــداح

استعمل هنا أسلوب الأمر فى البيت فى قوله: "فسلوا به الخمر العجوز"؛ حيث طلب من المتلقين أن يسألوا أى يفتشوا عن حاله سيجدونه يعاقر الخمر من الأقداح التى لا تفارق يده؛ لأنه كما قال فى البيت الأول ركب هواه وألغى عقله، وأسلم نفسه للهلاك، وماله للفناء وبهذا يكون قد أدى المعنى المراد بأسلوب الإنشاء عن طريق صيغة الأمر بأيسر طريق أداء جميلاً.

ومثاله قوله فى قصيدة "إلى الحاكم المسلم":

رزقت جاهاً فخل العز يحميه ** والعز حصن، وتقوى الله تبنيه

قلدت حكماً ومنهاج السياسة أن ** ترعى الشريعة فيما أنت قاضيه

استعمل هنا أسلوب الأمر فى قوله: "فخل العز يحميه" ليصل إلى ما يريده من الحاكم المسلم بعد أن رزق هذا الجاه وهو حكم المسلمين أن يؤسس له بالعز ويبنيه بتقوى الله، وفى البيت الثانى فى قوله: "أن ترعى الشريعة". يحمل معنى الأمر أيضاً، فقد أتى به بعد قوله: "قلدت حكماً" فأرشده بالمصدر المؤول بمعنى "ارع الشريعة فى حكم المسلمين الذى قلدته وأسند إليك، واقض بالعدل بين رعيتك، وقد أدى المعنى المراد بهذا الأسلوب أداء جميلاً، والغرض هو النصح والإرشاد.

النهى:

يستخدم الشاعر أسلوب النهى ليتجنب المتلقى الأمر المنهى عنه لما فيه من خطر يؤذيه أو يؤلمه، وقد استعمل الشاعر الخضر حسين هذا الأسلوب فى شعره الاجتماعى لنفس الغرض، ومثال ذلك قوله فى مقطعة عنوانها "خواطر مريض":

أرق وهل يبغى القريح سوى السبات ** والقلب خفاق كقادمة القطاة

لا ترهقينى يا حياة ضنا أما ** يكفى خطوب كالأسنة فى اللهاة

استعمل الشاعر هنا أسلوب النهى فى قوله: "لا ترهقينى يا حياة"، يطلب من حياته ألا ترهقه بمرض أو بمصيبة أخرى وهو مريض يعالج فى فراش مرضه وقد شرح ذلك فى البيت الأول، وقد أدى المعنى الذى أراد بأيسر طريق طلبى هو النهى، وقد خاطب به من لا يعقل طالباً التخفيف من هذه الابتلاءات المتتابعة.

ومثال ذلك قوله فى مقطعة أخرى بعنوان "الشيوخ والفتيات":

لا ترج من غادة فتاة ** تبنى عليها وأنت شيخ
ما كنت تلقاه من فتاة ** وللشباب الغريض شرخ

استعمل فى البيت الأول أسلوب النهى فى قوله: "لا ترج من غادة فتاة"، ينهى صاحبه أن يقترن فى هذه السن المتقدمة وهو شيخ بفتاة شابة، حتى لا يظلمها أو يظلم نفسه؛ فلن يجد عندها ما يرضيه، ولن تجد لديه ما يسرها ويشبع نهمها كسائر بنات جنسها؛ فاشتمل النهى على النصح والإرشاد وأدى هذا المعنى الذى أراد بهذا الطريق أداء جميلاً فما أحوج الإنسان إلى النصيحة فى مثل هذه المواضع، وفى البيت الثانى ينكر عليه طلبه هذه الفتاة لأنه لا يجد عندها شيئاً؛ فهو شيخ هرم وهى فتاة شابة والمسافة بينهما بعيدة بعيدة.

ومثاله – أيضاً– قوله فى قصيدة "خائنو أوطانهم":

فأجابت جارة تطفئ من ** نارها والروع نار تلذع
لا يروعنك الحديد الصلب فى ** أرضنا ينحط أو يرتفع
فهو ما لم يلق من أعوادنا ** عضداً يسعده لا يقطع

استعمل هنا أسلوب النهى فى قوله: "لا يروعنك الحديد الصلب"؛ أى لا تفزعى من هذا الحديد الصلب ولا تخافى، فرغم قوته لا يقطع شيئاً إلا إذا ساعده منا ساعد من خشب، والنهى هنا لغير العاقل، لأن هذا حديث أشجار

الدوحة التى أعمل صاحبها فأسه فيها، وقد أدى الشاعر المعنى الذى أراده بطريق النهى أداء جميلاً.

ومثاله فى مقطعة أخرى بعنوان "تقلب الزمان":

لا تغل فى مرح إذا ** بسم الزمان ورحبا

وتلقه بتجلد ** مهما جفاك وقطبا

استعمل هنا أسلوب النهى فى قوله: "لا تغل فى مرح.." كى ينهى ويمنع صاحبه التمادى فى المرح إذا ابتسمت الدنيا فكثر لديه المال والولد زينة الحياة الدنيا، وما عليه إلا أن يتوسط فى كل أموره فلا إسراف ولا تبذير، وقد أمره فى البيت الثانى بالصبر والتجلد إذا غضبت منه الدنيا فكثرت ديونه، وفقد أولاده، وحورب فى صحته.

وقد أدى الشاعر المعنى الذى أراده وهو النصح والإرشاد بطريق النهى أداء جميلاً.

الأسلوب الخبرى:

وكما أجاد الشاعر فى استعمال الأسلوب الإنشائى فى شعره الاجتماعى، أجاد أيضاً- فى استعمال أسلوب آخر هو الأسلوب الخبرى الذى يصلح فى موضع وسياق لا يصلح فيه استعمال الأسلوب الإنشائى الطلبى، ومثاله قوله فى قصيدة للشاعر هى "بعض أمراضنا الاجتماعية":

قالوا استقام الشرق وهو يسير فى ** نهج الفلاح وفى عزيمته مضاء

ولشد ما خضنا الخطوب ولم نرد ** إلا العلا وجرت بوادينا دماء

استعمل هنا الأسلوب الخبرى لأنه يناسب ما أرادأن يذكره لنا؛ فقص علينا ما قالوا عن استقامة الشرق فى سيره الناجح لأنه صاحب عزيمة قوية، وكثيراً ما خاض الشرق صعوبات وشدائد ولا هدف له سوى التقدم والنهضة وبذل فى

سبيل ذلك الدماء والأرواح الغالية التى حاربت المستعمر حتى نالت حريتها، ولو استعمل أسلوباً إنشائياً آمراً أو ناهياً أو حاضاً أو متعجباً لما ناسب أسلوب قص الأحداث وروايتها؛ فالمناسب هنا هو الأسلوب الخبرى.

ومثاله قوله – أيضاً– فى القصيدة ذاتها:

قلنا الدعارة لم تزل فى أرضنا ** ولرهطها فى كل حاضرة لواء

تلك الخمور تدار فى علن ولا ** لوم ينال المعلنين ولا جزاء

استعمل هذا الأسلوب الخبرى لأنه يناسب ما أراد أن يذكره لنا؛ فقص علينا قصة هذا الداء الذى حل بوطننا وقنن له، أى سمح للعاهرات بممارسة الدعارة ولها أماكن ورواد، وكذلك قص علينا قصة الخمور وتداولها بيعاً وشراء وشرباً، ولا أحد من المسئولين يحارب هذا أو يعمل على إصدار قانون ضده ولو استعمل أسلوباً إنشائياً لما وصل إلى ما أراده عن طريق الأسلوب الخبرى.

ومثاله فى ذات القصيدة قوله:

فتياتنا إن رمت بث شكايتى ** من خطبهن يسابق الشكوى بكاء

كن البدور حصانة ووسامة ** والحسن يبهر إذ يخالطه الحياء

وحجورهن مدارس الاطفال إذ ** طهرت فحظهم الطهارة والنقاء

استعمل هنا الأسلوب الخبرى ليقص علينا ما أصبحت عليه فتيات الشرق العربى من تبذل وسفور جعله يشكو من ذلك لما أصبحن فيه، وقبل الشكوى يكون البكاء، وهذا كله طارئ عليهن وليس من أخلاقهن تقليداً لفتيات الغرب الأوربى؛ فقد كن بدوراً محصنات جميلات، وما يزيدهن حسناً هذا الحياء الذى اتصفن به وتخلقن، وقد كانت بيوتهن مدارس للأطفال تربية وتنشئة تعليماً وتهذيباً فنعم التعليم ونعمت التربية، وإذا استعمل أسلوباً إنشائياً طلبياً ما وصل

إلى ما أراده عن طريق الأسلوب الخبرى؛ لأنه لا يناسب قص الأحداث وروايتها كالأسلوب الخبرى.

ومثاله- أيضاً- قوله فى قصيدة: "أيها الإنسان":

صفت الحديد مطايا إذ تلبثت الـ ** ـجياد أو لقيت من سيرها نصبا

واشتقت نجوى أليف فاهتديت إلى ** ما يمتع السمع منها أينما ذهبا

حكى الصدى صيحة رجت فجئت بما ** يحكى القصائد أنى شئت والخطبا

استعمل هنا الأسلوب الخبرى ليقص علينا ما وصل إليه الإنسان فى هذا العصر؛ فقد صنع من الحديد ما يركبه من مركبات بخارية أو كهربية عوضاً عن الجياد التى لقيت فى سيرها التعب والنصب، وقد صنع من الحديد أيضاً – ما يلتقط من الهواء موجات صوتية ليمتع سمعه بما يقال فيه غناء وطرباً أو خطباً؛ ولو استعمل أسلوباً إنشائياً فى هذا الموضع ما وصل إلى ما أراده كما فى استعماله أسلوب الخبر الذى يناسب القص والرواية.

وقد يبالغ الشاعر فى التعبير بالأسلوب الخبرى باستخدامه "كم" الخبرية؛ التى تؤثر فى المتلقى بإثارة ذهنه وتشويقه لما يأتى بعدها من أخبار مبالغ فى إيرادها وهى حقيقية ويجب التنبيه إليها، ومثال ذلك فى الشعر الاجتماعى للشاعر الخضر حسين قوله، فى قصيدة "بعض أمراضنا الاجتماعية":

كم من مآدب فى البلاد تقام فى ** رأد الضحى وعلى موائدها الطلاء

استعمل هنا الأسلوب الخبرى الذى يناسب قص ورواية الحدث المعبر عنه، وزاد فى ذلك الأسلوب مبالغة باستخدامه "كم" الخبرية التى عملت على إخبار المتلقى بكثرة المآدب المنتشرة فى البلاد، وتعاقر فيها الخمر معالنة دون رادع من قانون أو وازع من دين، وهذا لا يليق فى بلاد الإسلام الذى حرم دينها شرب الخمر، بله المعالنة بشربها، فقد حرص الشاعر على استعمال "كم

الخبرية" التى تدل على ذلك، ولو استعمل فى هذا الموضع أسلوباً إنشائياً فقال مثلاً: لا تشربوا الخمر وأنتم تأكلون على الموائد فى وضح النهار، ما وصل إلى ما أراد عندما استعمل أسلوب الخبر، وزاد عليه استعمال "كم الخبرية". ليستقر فى ذهن المتلقى ما أراد توصيله له.

ومثال استعماله "كم" الخبرية قوله فى قصيدة: "لماذا يبكى الطفل ساعة ولادته"؛:

كم ليال مضت ولم تك شيا ** فلما صرت نامى الجسم حياً؟

كنت فى ظلمة فوافيت نورا ** تستملاه بكرة وعشيا

استعمل هنا – أيضاً– "كم" الخبرية لأن المقام استدعاها؛ فهذا المولود الذى بكى ساعة ولادته لا يدرى كم من الأيام والليالى والشهور مضت عليه وهو فى ظلمة رحم أمه حتى تم خلقه وتكوينه بقدرة، وها هو يولد فيبكى، وقد نزل إلى النور الذى أضاء له حياته صباح مساء، وكم هنا تدل على كثرة وطول المدة الزمنية التى قضاها الجنين فى بطن أمه، ولو استعمل أسلوباً إنشائياً فقال مثلاً: لا تبك وقد مكثت زمناً فى بطن أمك لما أدى المعنى المقصود باستعماله "كم" الخبرية والأسلوب الخبرى.

وقد يختلط الأسلوب الخبرى ويتعانق مع الأسلوب الإنشائى وهذا التعانق يقوى المعنى ويؤكده ويضعه فى مرتبة البلاغة الأسلوبية التى قصد إليها الشاعر، وتلك ميزة لا توهب لكثير من الشعراء.

ومثال ذلك قول الشاعر الخضر حسين فى قصيدته "إلى الحاكم المسلم":

رزقت جاهاً فخل العز يحميه ** والعز حصن وتقوى الله تبنيه

فقوله: "رزقت جاهاً" أسلوب خبرى، تعانق مع قوله: "فخل العـز يحميـه" وهو إنشائى طلبى عن طريق الأمر، وفى هذا توضيح للمعنى وتأكيد له وفـره الشاعر فى هذا التعانق بين الأسلوبين.

أسلوب الشـرط:

ومن الأساليب المهمة التى استعملها الشاعر الخضر حـسين فـى شـعره الاجتماعى، أسلوب الشرط وهذا الأسلوب يستعمله الشاعر للدلالة على وقـوع الجواب كلما وقع الشرط، وتلك وظيفته فـى اللغـة، وهـذا يوصـى بالتجـدد والتكرار، ويعطى للأسلوب حياة وتطوراً، وهذا الأسلوب لا يغنى عنه أسـلوب آخر كالخبر والإنشاء بأنواعه كالأمر والاستفهام والتمنى والتعجـب؛ لاشـتماله على التجدد والتكرار الذى لايوجد فيها، لأن الشاعر يصل عن طريق الـشرط إلى ما يريد بسهولة ويسر، ويؤدى معناه أداء جميلاً، ومثال الشرط فـى شـعر الخضر حسين الاجتماعى قوله فى قصيدة: "بعض أمراضنا الاجتماعية":

وإذا ذكـرت الـدين قـالوا خلنـا ** مـن ذكـره وعلـى أخوتـه العفـاء

إن المـدارس كالـسموات العـلا ** وعلومهـا مثـل النجـوم لهـا ضـياء

استعمل أسلوب الشرط فى قوله: "وإذا ذكرت الدين" ليـدل علـى وقـوع الجواب فى قوله: "قالوا خلنا من ذكره" لأن هذا الرد متوقع مـن الأعـداء أو مساعديهم فى الوطن؛ أى كلما ذكرت الدين قالوا خلنا فدل على التجدد والتكرار لأن هذه طبيعة الشرط، وقد وصل إلى أداء هذا المعنى بيسر وسهولة.

ومثاله –أيضاً– قوله فى ذات القصيدة:

إن جئـت نـاديهم بـأبلغ حجـة ** فجـوابهم عنهـا الـتهكم والبـذاء

استعمل هنا – أيضاً– أسلوب الشرط ليدل على الجواب فى قوله: "فجوابهم عنها التهكم والبذاء" ودل ذلك على التجدد والتكرار الذى حملته ودلت عليه أداة

الشرط "إن"، بمعنى أنه كلما جئت ناديهم بالحجة البالغة المقنعة لا يقتنعون بها ويتهكمون بك، وقد وصل إلى أداء هذا المعنى بسهولة ويسر من أقصر طريق أداء جميلاً.

ومثاله قوله فى ذات القصيدة:

إن لم أذكر بالحقائق دائباً ** فأنا وغير العالمين بها سواء

استعمل أسلوب الشرط هنا – أيضاً– فى قوله: "إن لم أذكر بالحقائق" ليدل على الجواب المتوقع فى قوله: "فأنا وغير العالمين بها سواء"، وهنا وجب عليه وعلى الجميع التذكرة بالحقائق، كما أفاد تجدداً فى المعنى وتكراره، لما فى طبيعة أداة الشرط من ذلك فما وضعت إلا لهذا وقد أدى ما أراد بيسر وسهولة وبأقصر طريق أداء جميلاً.

ومثاله – أيضاً– قوله فى قصيدة "الأثرة بين الأصدقاء":

ولو احتسى الماء الزعاق حسوته ** عباً ولو جاء الفرات بمائه"

والود إن شابته يوماً أثرة ** ضلت معالم صدقه وصفائه

استعمل هنا أسلوب الشرط – أيضاً– فى قوله: "ولو احتسى الماء الزعاق" ليدل على الجواب فى قوله: "حسوته" أى لو شرب صديقى الماء الملح سبقته لشربه ولو كان أمامى الماء العذب لأن صديقى يستحق شربه؛ فدل ذلك على إخلاصه لصاحبه، فأدى المعنى بالشرط أداء جميلاً وأفاد الشرط التجدد والتكرار، وفى البيت الثانى – أيضاً– استعمل أسلوب الشرط لذات الغرض فى قوله: "والود إن شابته يوماً أثرة" ليدل على جوابه بطريق سهل ميسور أفاد تجدداً وتكراراً لدلالة الأداة على ذلك فجاء الجواب فى قوله: "ضلت معالم صدقه وصفائه".

ومثاله – أيضاً– قوله فى مقطعة بعنوان: "رقة الطبع تزيد المودة صفاء":

إن تلق طبعاً رقيقاً فاغرسن به ** مودة يسقيها من ماء رقته

استعمل أسلوب الشرط فى قوله: "إن تلق طبعاً رقيقاً"، وقد دل الشرط على جوابه فى قوله: "فاغرسن به مودة"؛ فتمام الشرط هو جوابه، ودل الشرط على التجدد والتكرار وفى هذا تثرية للمعنى الذى أداه الشاعر بأيسر الطرق وأسهلها أداء جميلاً.

ومثاله قوله فى قصيدة "الرجاء أساس كل نجاح":

لولا شعور من بقايا فطرة ** لهوى كما يهوى صريع رماح

هى همسة من فطرة الله الذى ** جعل الرجاء أساس كل نجاح

استعمل أسلوب الشرط هنا – أيضاً– فى قوله: "لولا شعور من بقايا فطرة"، ليدل الشرط على جوابه فى قوله: "لهوى كما يهوى صريع رماح"؛ لولا ثقته بفطرته التى فطره الله عليها بأن مع العسر يسرا، وبأن بعد الضيق فرجاً لقتل نفسه وخرج من دنياه يائساً من رحمة الله، وقد أفاد الشرط هنا التجدد والتكرار، ودل على المعنى الذى أراده الشاعر بأيسر طريق أداء جميلاً.

وقد فسر هذا كله معنى البيت الثانى وزاده توضيحاً.

ومثاله قوله فى قصيدة "المعارف والصنائع":

لو أفرغوا فى وسعه ما جل من ** عمل لأغدق فيه عيش أرغد

استعمل هنا – أيضاً– أسلوب الشرط فى قوله: "لو أفرغوا فى وسعه"؛ ليدل على جوابه فى قوله: "لأغدق فيه عيش أرغد"؛ والحديث عن الزمن الذى يلقى الناس اللائمة عليه، والحقيقة أن اللوم يعود عليهم كما قال الشاعر؛ لأنهم لو ملأوا فراغهم بعمل نافع ومفيد لهم ولمجتمعهم لسعدوا فى دنياهم ولما ألقوا باللائمة على الزمن، واستعمال أسلوب الشرط هنا أفاد التجدد والتكرار، ويصح

استعماله مع من يفكر فى ذلك، وقد أدى المعنى المراد ووصل إليه بأقصر طريق وأيسره أداء جميلاً:

أسلوب النداء:

ومن الأساليب التى يستعملها الشاعر فى شعره؛ أسلوب النداء، "ويؤتى بالنداء ليوحى بمعنى الرغبة فى إقبال المنادى، لما تربطه بالمنادى من روابط الحب والمودة، حباً وحناناً أو إشفاقاً وخوفاً"(١).

وقد استخدم الشاعر محمد الخضر حسين هذا الأسلوب فى شعره الاجتماعى؛ ومنه قوله فى مقطعة عنوانها: "ثوب المذنب كفن":

أيا من خاط لى ثوباً قشيباً ** وقد ملئت صحائف من ذنوبى

أتصنعه بلا جيب؛ وهذا ** يعد لدى الرجال من العيوب؟

فقال: ألست فى الموتى، ومن ذا ** رأى الأكفان تصنع بالجيوب؟

نادى على مخاطبه الذى يخيط ثيابه القشيبة، وما ذاك إلا لينبه صاحبه أنه لا تغنى الثياب القشيبة عن هذا الذى ركبته الذنوب وأذلته الآثام؛ وكيف يخيط الثوب بلا جيب، فكان الرد أنه فى الموتى وهذا الثوب كفن له والأكفان لا تصنع لها جيوب.

ومثاله قوله فى مقطعة عنوانها: "أنباء تونس":

أمحدثى ربيت فى الوطن الذى ** ربيت تحت سمائه وبلغت رشداً

وجنيت زهر ثقافة من روضة ** كنت اجتنيت بنفسجاً منها ووردا

هات الحديث فإننى أصبوإلى ** أنباء تونس من صميم القلب جداً

نادى محدثه الذى أتاه زائراً من تونس إلى مصر حباً وداً وحناناً وهو مشتاق إلى أخبار وطنه الأول، فلم يأمره أولاً؛ لكن ناداه ثم طلب منه ذلك؛

(١) انظر: ص(٦٥) دراسات فى النص الأدبى، مرجع سابق.

فاستعمل هنا أسلوب النداء كى يصل إلى ما يريد، وهو أن يخبره المنادى الزائر بأخبار عن الوطن الذى طال شوق المنادى إليه.

ومثاله قوله فى قصيدة "عهد الشبيبة والمشيب":

أزين العابدين لمحت منى ** قصوراً فى اللقاء فكن عذيرى

أثرت بمهجتى ذكرى ليال ** قضيناها بدمر فى حبور

استعمل هنا – أيضاً– أسلوب النداء بأداة النداء "الهمزة"، وما ذاك إلا لقرب صديقه هنا، وكان قد جاءه منه خطاب يطلب منه أن يزور "دمشق" ليرى حسن مناظر الربيع بها وطيب هوائها فمن باب الحب والود والحنان نادى صديقه بالهمزة دون الياء على الرغم من بعده عنه مكاناً لكنه قريب منه بحبه ووفائه، ولا ينادى مناد إلا على من يحب ويرغب فى إجابة وتلبية ندائه.

وقد يستغنى الشاعر فى شعره الاجتماعى عن أداة النداء فى هذا الأسلوب إذا نادى عزيزاً لديه، وأعز شىء لدى الشاعر وطنه الكبير الذى أحبه حباً أبدياً كان ذلك فى شرق الوطن أو غربه أو فى شماله أو جنوبه، ومثال ذلك قوله فى مقطعة عنوانها: "حب الوطن":

وطنى علمتنى الحب الذى ** يدع القلب لدى البين عليلاً

لا تلمنى إن نأى بى قدر ** وغدا الشرق من الغرب بديلاً

فقد استعمل هنا أسلوب النداء دون أداته لقرب المنادى من قلبه، فوطنه أقرب شىء إليه، وأعز شىء لديه، وسيظل هكذا مهما فرق العدو بينهما، ووطنه هو الذى علمه ذلك الحب، وهذا الرباط الأبدى المقدس، وقد حافظ على ذلك وما زال، فلا لوم عليه إن شرق فى وطنه أو غرب.

ومثال ذلك أيضاً– قوله: فى قصيدة "المعارف والصنائع":

أبناء هذا العصر هل من نهضة ** تشفى غليلاً حره يتصعد

هذى الصنائع ذللت أدواتها ** وسبيلها للعالمين ممهد

فقد استعمل هنا أسلوب النداء دون أداة؛ لأن أبناء وطنه هو المنادى، وهم أقرب الناس إلى قلبه، وطلب منهم أن ينهضوا بوطنهم، فحذف الأداة يدل على ما قصد إليه الشاعر؛ فهو لا يخطب فيهم حتى يرفع صوته بالأداة، لكنه يقربهم منه بالنداء فإذا تمكن من قلوبهم به أمرهم وأرشدهم وحثهم على الأخذ بأسباب نهضة وطنهم ومنها الصناعة وخاصة بعد أن ذللت أدواتها وتوافرت في هذا العصر، فلم التقاعس عن الأخذ بها ليتقدم الوطن بزيادة الاقتصاد ونموه ليزداد الوطن قوة وتقدماً، فوصل الشاعر بأسلوب النداء محذوف الأداة إلى ما أراد من أقصر طريق، وأدى المعنى أداء جميلاً.

خاتمــة البحــث

وبعد، فهذه سياحة أدبية نقدية فى خواطر الشاعر الكبير محمــد الخــضر حسين من خلال ما أبدع يراعه من أفكار، وما سجلت أسلة قلمه من عواطــف وأحاسيس؛ تناول فيها هموم وطنه لإيجاد حلول لها فى جانبها الاجتماعى، وقــد تبين لنا من هذه الدراسة لشعره فى هذا الاتجاه صدق الشاعر فى تناول قــضايا مجتمعه صدقاً فنياً وشعورياً، وقد أيد ذلك بإخلاصــه النــصيحة لله ورســوله والمؤمنين من خلال ما نظم من شعر، وتبين – أيضاً– حرصه الــشديد علــى إخراج هذا الفن الشعرى فى أعلى درجات الصياغة الــشعرية المتقنــة، وقــد حرص على استعمال الموهبة كسلاح فى إخلاص هذا العمل فناً وهدفاً، وتبــين لنا أنه قد وقف حياته الشخصية الخاصة به على إعلاء الحق والخير، مهما كلفه ذلك من سياحة أرضية أو سياحة فكريــــة، وتبين لنــــا – أيضاً– أنه تــوخى فى كل من ما نظم ما اطمأنت إليه نفسه وكان فيه مرضاة ربه عزوجل. وكلمة حق تقال هى إن الشاعر حرص كل الحرص على إخراج فنه الشعرى فى إطار نظم العربية الفصحى أسلوباً وتركيباً ونسجاً؛ فالألفاظ عربية أصيلة فخمة جزلة منتقاة ناسبت النظم الشعرى لم تتجاوزه قيد أنملة، وقــد تناســقت مــع الأوزان العربية فى كل البحور التى نظم عليها، وسهلت للقافية ورودها مطمئنة متمكنــة فى مكانها من البيت، ولم ترهقه الضرورة الشعرية لتمكنه مــن لغتــه وفنــه، والمعانى التى تطرق إليها الشاعر وردت طى ألفاظها مستوفية شروطها، وقــد تمت بلاغتها وسموها البيانى، والدليل هو هذا الكم الهائل من الصور الــشعرية التى بنيت على الحقيقة، ونسجت من الخيال الشعرى، وكذا تنوع الأسلوب بــين الإنشاء بأنواعه والخبر بألوانه، ومناسبة كل أسلوب لمحل وروده، وكذا أسلوب

الشرط وأسلوب النداء فقد أدى كل أسلوب دوره فى الشعر الاجتماعى خير أداء.

وأخيراً؛ فإن كنت قد أديت دورى فى هذه الدراسة محيطاً – قدر الطاقة – بما قد عزمت عليه، فهذا توفيق من الله عزوجل وأن يكون البحث فاتحة خير لكل من يريد أن يدلى بدلوه فى دراسة جوانب شعر هذا الشاعر الكبير، وإن كانت الأخرى وبدا تقصير أو سهو أو نسيان فمنى ومن الشيطان سائلاً المولى عزوجل التوفيق والسداد والرشاد إنه ولى ذلك والقادر عليه وهو نعم المولى ونعم النصير،،

مصادر ومراجع البحث

١- القرآن الكريم.
٢- الحديث الشريف.
٣- بلاغة الإيقاع فى القصيدة العربية د. عبد الباسط عطايا، شبين الكوم ط ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٤- اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د. محمد نايل، مطبعة العاصمة، دون تاريخ.
٥- دراسات فى النص الأدبى العصر الحديث د. محمد عارف حسين ط ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١ مطبعة الشهداء منوفية.
٦- ديوان خواطر الحياة محمد الخضر حسين المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، ط ثانية سنة١٣٧٣هـ.
٧- ديوان محمود سامى البارودى طبعة أولى، القاهرة، دون تاريخ.
٨- الشعر وغاياته ووسائطه، إبراهيم عبد القادر المازنى، دار الصحوة ط سنة ١٩٨٦م.
٩- شعراء مصر وبيئاتهم للأستاذ عباس محمود العقاد، ط ثالثة، دون تاريخ.
١٠- الشوقيات للشاعر أحمد شوقى، دار الكتاب العربى بيروت، لبنان، دون تاريخ.
١١- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد طبعة دار الجيل، ط الخامسة، دون تاريخ.
١٢- عمود الشعر العربى فى مرآة النقد الأدبى د. عبد الفتاح على عفيفى، مطبعة الأمانة، ط أولى ١٩٨٦م.

١٣- قطوف من النقد الأدبى المعاصر د. فتحى محمد أبو عيسى ط سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
١٤- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ط أولى سنة ١٩٧٠م.
١٥- موسيقى أوزان الشعر العربى، دراسة تطبيقية، د. سيد مرسى أبو ذكرى ط ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٣٩٢٥/ ٢٠٠٢م.
١٦- النقد الأدبى الحديث فى مذاهبه وقضاياه د. عبد الفتاح على عفيفى، ط سنة ١٩٨٦م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
أولاً: نظرات موضوعية.....	٣
حياة الشاعر.....	٣
من الشاعر محمد الخضر حسين؟.....	٣
ثانياً: نظرات فنية فى شعر الخضر حسين.....	١٩
التجربة الشعرية.....	٢٠
الخيال الشعرى.....	٢٥
الموسيقى.....	٢٩
القافية.....	٤٠
التصريع.....	٥١
القصر.....	٥٦
الاستفهام.....	٥٧
الأمر.....	٦٠
النهى.....	٦٢
الأسلوب الخبرى.....	٦٤
أسلوب الشرط.....	٦٧
أسلوب النداء.....	٧٠
خاتمة البحث.....	٧٣
مصادر ومراجع البحث.....	٧٥
فهرس الموضوعات.....	٧٧